د. علي عوض محمد آل قطب، أثر الشوكاني في سياسة الأئمة اليمنيين تجاه العلماء المعارضين له، مجلة جامعة الملك خالد للدراسات التاريخية والحضارية، العدد الأول: ١٨٣- ٢٣٨

أثر الشوكاني في سياسة الأئمة اليمنيين تجاه العلماء المعارضين له

د. علي عوض محمد آل قطب
جامعة الملك خالد – السعودية

الملخص:

تتناول هذه الدراسة أثر الإمام الشوكاني في سياسة الأئمة اليمنيين تجاه العلماء المعارضين له، وتقارب بعينٍ تحليلية فاحصة ما أُشيعَ عنه في بعض المصادر من أنه ضالعُ في النكبات والمحن التي تعرض لها مخالفوه من لدن السلطة الإمامية في اليمن، مستغلاً نفوذه وقربه من دوائر السلطة، بوصفه قاضياً للقضاة لما يزيد عن أربعة عقود. هذه الدراسة تبحثُ بأناة في قضية سجن إسماعيل بن عز الدين النعمي، ومقتل محمد بن صالح السماوي، ومحنة محمد بن علي العمراني،. وهؤلاء جميعهم يُعدون من الشخصيات العلمية والفقهية في اليمن، وهم ممن خالف الشوكاني، وعارض مشروعه الاجتهادي والفكري في اليمن آنذاك، وبالتالي فإن هذه الدراسة تستقصي هذا الخلاف من جذوره، وتكشف حجم العلاقة بينه وبين ما تعرض له هؤلاء العلماء من تنكيل وأذى على يد السلطة، وهذان الأمران تم التعويل عليهما بحيث شكّلا معاً ركيزة أساسية اعتمدت عليها الدراسة في تقديم مقاربة دقيقة تحلّل دور الشوكاني في هذه القضية، وتميط اللثام عن أثره الحقيقي فيها.

الكلمات المفتاحية: الشوكاني؛ أئمة اليمن؛ العلماء المعارضون؛ النعمي؛ السماوي؛ العمراني

Al-Shawkānī's effect on the policy of the Yemeni imams towards the scholars who oppose him

ʻAlī A.M. Āl-Quṭb
King Khalid University, Saudi Arabia
alawasiri@kku.edu.sa

This study examines the impact of al-Shawkānī on the policy of the Yemeni imams towards the scholars opposed to him. It seeks to provide an analytical approach to what is stated in some sources that he benefited from his influence and proximity to the power circles to cause the calamities and tribulations that his opponents suffered by the Imamate's authority. The study carefully examines the case of the prison of Ismāʾīl ibn ʻIzz ad-Din al-Naʾmī, the plight of Muḥammad ibn ʻAlī al-ʻUmrānī, and the killing of Muḥammad ibn Ṣāliḥ al-Samāwī. These are all considered to be scientific and juristic personalities in Yemen, who were against Al- Shawkānī and opposed his diligent and intellectual project in Yemen at that time. It therefore investigates this dispute from its roots, and reveals the extent of the relationship between it and what these scholars were subjected to abuse and harm by the authority.

Keywords: al-Shawkānī; Imams of Yemen; Opposing Scholars; al-Naʾmī; al-Samāwī; al-ʻUmrānī.

المقدمة:

وصل الشوكاني إلى منصب قاضي القضاة في عام ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م، خلفاً للقاضي يحيى بن صالح السحولي، واستمر في هذا المنصب لما يزيد عن أربعة عقود، معاصرًا بذلك ثلاثة من الأئمة هم: الإمام المنصور بالله علي بن العباس، والإمام المتوكل أحمد بن علي، والإمام المهدي عبدالله بن أحمد. وخلال فترة هؤلاء الأئمة الثلاثة، كانت سلطة الإمام القائم منهم سلطة مطلقة، شأنها في ذلك شأن الكثير من الإمارات والدول والممالك الأخرى في الأقطار العربية والإسلامية، وبالتالي فإني حين أنظر إلى علاقة هذه السلطة بالعلماء المعاصرين لها، نجد أنها علاقة متفاوتة، ومختلفة بين عالمٍ وآخر، تبعًا لوزنه ومكانته الرمزية التي حازها في وجدان المجتمع، فضلاً عن موقفه من هذه السلطة. هذه الاعتبارات يُشكل استحضارها تفسيرًا موضوعيًّا لما نلمسه من تفاوت واضح في سياسة السُلطة تجاه هؤلاء العلماء، باعتبار أن بعضهم كان ذا حظوة عندها، في حين كان البعض الآخر منبوذًا منها، بحيث ربما تعرّض للتنكيل والعقاب إلى حد السجن والنفي، وربما وصل الأمر إلى القتل والإعدام[1].

وبالتوازي مع علاقة السلطة الإمامية في اليمن بهؤلاء العلماء، فإن الشوكاني وهو آنذاك يتسنم أعلى المناصب القضائية في اليمن، ويحمل نفوذاً كبيراً في دوائر السلطة الإمامية، كان يحظى بعلاقات واسعة مع علماء عصره، سواءً كان ذلك داخل اليمن أم خارجه. وكانت هذه العلاقات مختلفة، بل ربما متباينة، اتسم بعضها بالمتانة والمودة والمحبة الإخوانية، وكان مُحددها في ذلك الهمّ العلمي المشترك، والانسجام الفكري، في حين اتسم بعضها الآخر بالعداء، والخصومة الشديدة، مصدرها الاختلاف الفكري، وما يدور بين الأقران من تنافس علمي يصل إلى حدِّ المناكفات والضغائن والمكايدات الشخصية.

والحال أنني لست بصدد دراسة علاقات الشوكاني مع أقرانه من العلماء، ولا بصدد بحث صلاته العلمية والفكرية مع الموافقين له، أو حتى المختلفين معه، وإنما بصدد فهم ما راجَ في بعض المصادر والمراجع اليمنية من إشارات تتعلق بأثر الشوكاني في سياسة السلطة الإمامية في اليمن تجاه العلماء الذين عارضوه، أو اختلفوا معه. ذلك أنَّ عددًا من المصادر التاريخية اليمنية، وكُتب التراجم خاصة الزيدية منها أوردت أسماء عددٍ من العلماء الذين تعرضوا للسجن والتنكيل والقتل على يد سلطة الأئمة القاسميين في اليمن خلال النصف الأول

من القرن الثالث عشر الهجري، أي خلال تولي الشوكاني منصب قاضي القضاة، مثل: إسماعيل بن عز الدين النعمي، ومحمد بن علي العمراني، ومحمد بن صالح السماوي، الملقب بابن حريوة. وهذه المصادر حين ذكرت هؤلاء العلماء المنكوبين، فإن بعضها أشارت إلى أن الشوكاني كان ضالعًا فيما حدث لهم من محن وخطوب، باعتبار أنه كان على خصومة فكرية شديدة معهم. ومن هنا تنبعُ أهمية دراسة هذا الموضوع، بوصفه موضوعًا لم يتم التطرق إليه، وباعتبار أن الخوض في غمار هذا الموضوع يعدّ كشفًا لأحد جوانب حياة الشوكاني المسكوت عنها، أو بالأحرى أحد الجوانب اللامفكر فيها من قبل عديد المؤرخين والباحثين الذين تناولوا حياة الشوكاني درسًا وتحليلاً.

وللتحقيق في هذا الموضوع الذي يبدو شائكًا، فقد قُسِّمت هذه الدراسة إلى ثلاثة مباحث، هي: سجن العلامة إسماعيل بن عز الدين النعمي، ومقتل العلامة محمد بن صالح السماوي، ومحنة العلامة محمد بن علي العمراني. والجدير بالذكر أننا تعمّدنا سلوك منهج موحد في هذه المباحث الثلاثة، واستُهِلَّ كُلُّ مبحث من هذه المباحث بتقديم نبذة يسيرة عن الجانب العلمي لكل واحد من هؤلاء العلماء، مع الإحاطة بالسياق الفكري الذي تموضعت فيه كل شخصية من شخصياتهم، وما أفضت إليه من دواعي الخصومة مع الشوكاني، وذلك للوصول إلى تقديم مقاربة تاريخية نقدية تمحصُ ما جرى لهؤلاء العلماء المنكوبين، وإعطاء تحليلٍ دقيق للمسارين التاريخي والفكري وما يتعلق بهما من ظروف ذات ارتباط وثيق بنكبات هؤلاء العلماء، ومقدار صلة الشوكاني بها.

وقد استخدمت في هذه الدراسة المنهج الوصفي، متوسلاً في ذلك بالنقد التاريخي التحليلي، ومعتمدًا على المصادر الأصلية سواءً أمصادر مخطوطة كانت أم مطبوعة، إضافة إلى المراجع والدراسات التاريخية الحديثة التي يمكن توظيف رؤاها ونتائجها في الدراسة، مع تطبيق استخدام المقارنة على معلومات المصادر التاريخية، وإعمال التحليل والمقابلة بين العديد من متون المصادر ونصوصها بغية الوصول إلى الحقائق التاريخية، متوخينًا في ذلك أن يكون الاستناد على هذه المصادر والمراجع وفق المنهج العلمي.

المبحث الأول

سجن إسماعيل بن عز الدين النعمي

إسماعيل بن عز الدين النعمي هو عالمٌ وواعظ زيدي، من علماء القرن الثالث عشر الهجري، لم تذكر المصادر التاريخية التي أمكن الاطلاع عليها تاريخ ولادته، غير أنه نشأ بصنعاء، وعكف على طلب العلم بها، عُرف عنه أنه كان يؤجّر نفسه إلى البيت الحرام بمكة في كل عام[٢]. لم تأخذ شخصيته شهرة واسعة إلا بعد أن بدأت خصومته الفكرية مع الشوكاني حين ألّف كتاباً اسمه "السيف الباتر المضيء لكشف الإيهام والتمويه في إرشاد الغبي". وهذا الكتاب -كما يتضح من عنوانه- ردُ غاضب على كتاب "إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت من صحب النبي"، ألّفه الشوكاني سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م[٣]، أي قبل توليه منصب قاضي القضاة بحوالي عام واحد، وهو في جوهره جواب على سؤال ورده من بعض العلماء حول قضية سب الصحابة[٤]. وقد صاغ الشوكاني كتابه هذا بأسلوب جدلي، إذ كان يجادل مجادِلاً افتراضيًّا يتبنى الفكر الزيدي الهادوي، مؤكدًا أن ثمة إجماعًا لدى أئمة الزيدية يقضي بالنهي عن سب الصحابة، وأن سبهم أو شتمهم حرام ومنكر، فضلاً عن تكفيرهم وتفسيقهم[٥]. وخلال هذا الكتاب كشف الشوكاني عن شخصيته العلمية الراسخة من حيث إحاطته الشاملة، واستيعابه الكامل للفقه الزيدي، إذ حشدَ ثلاثة عشر قولاً من أقوال أئمة الزيدية وأعلامهم، تتفق جميعها على النهي عن سب الصحابة، وتتعاضد على القول بالترضية عن الشيخين[٦]. وكما أثبت الشوكاني باقتدار كبير حرمة سب الصحابة عند أئمة الزيدية، فإنه نفى شرعية سبّهم فضلاً عن لعنهم نفيًا قاطعًا، معتبرًا أن هذا الفعل ليس له ما يسنده من القرآن أو من السنة أو حتى من مصادر الزيدية، وأقوال أئمتهم، مؤكدًا أن شتم الصحابة لا يقول به إلا غلاة الإمامية أو من يسمون بالرافضة، الذين كانوا محطَّ إنكار كبير، وتشنيع واسع من علماء الزيدية أنفسهم[٧]. ولدعم هذا الرأي، استشهد الشوكاني ببعض أقوال أئمة الزيدية مثل ابن المرتضى[٨] الذي عدّ من يسبّ الشيخين فاسقًا، والهادي يحيى بن الحسين[٩] الذي نقل عنه الشوكاني روايةً تقضي بضلال الرافضة، والحضّ على قتلهم[١٠]. بل إن الشوكاني لم يكتف بهذه الأقوال بل ذهب إلى الإمام زيد[١١] نفسه، حيث ساق ما رُوي عنه من أن مسمى الرافضة لم ينشأ إلا بعد رفض الإمام زيد لعن الشيخين أو البراءة منهما[١٢].

ولأن كتاب الشوكاني كان يعالج هذه المسألة، ولأنه خلص إلى أن ثمة إجماعًا من آل البيت على الترضية عن الشيخين، فقد أفضى ذلك إلى حرجٍ كبير لدى ثُلة من علماء الزيدية الهادوية[١٣] الذين كانوا يرون سب الصحابة أو على الأقل لا يرون غضاضة في سبهم، ولا ينكرون على من فعل ذلك. وعليه فقد انبرى عددُ منهم للرد على الشوكاني، فألّفوا حوالي عشرين رسالة وكتابًا، كلها في الرد على إرشاد الغبي[١٤]، كان من أشهرها رسالة إسماعيل بن عز الدين النعمي، الموسومة بـ"السيف الباتر المضيء لكشف الإيهام والتمويه في إرشاد الغبي"؛ وفيها عمَدَ النعمي إلى إنكار ما ادعاه الشوكاني من إجماع آل البيت على الترضية عن الصحابة، حيث قال: "إن صاحب هذه الرسالة اعتمد في رسالته على الروايات الواهية الباطلة الذي رواها في الترضية والترحم مثله وأمثاله، واختلقوها على أئمة العترة سلام الله عليهم، والكلام هذا مبسوط في مضانه [مظانه]"[١٥].

ويفهم من سياق نصوص النعمي أن الروايات التي أوردها الشوكاني عن أئمة آل البيت أتت من مصادر المعتزلة، أي أنها روايات مُركبة بأثر رجعي لكي تبدو متسقة مع الفكر الاعتزالي، وبالتالي فإن هذه الروايات لا يمكن الأخذ بها، يقول النعمي في هذا السياق: "أعلم بأن لأهل الترضية دلائل[١٦] واهية وروايات عند قدماء أهل البيت غير متواترة، أخذوها من روايات المعتزلة في الترضية، ولا صحة لها عن القدماء والأثبات، بل المعروف منهم -عليهم السلام- هو التجريم العظيم والنكير لما اقترفه المشايخ من التعظيم"[١٧]. ويخلص النعمي من نفيه لصحة هذه الروايات إلى إنكار ما قرّره الشوكاني من أن ثمة إجماعًا من أئمة آل البيت على الترضية عن الشيخين، معتبرًا أن الشوكاني "ادعى[١٨] الإجماع على ذلك تمويهًا على الجهال الذين لا يميزون بين أقوال الرجال، ولا يعرفون الصحيح من السقيم من الأقوال"[١٩].

ولكي يدعم النعمي نفيه للإجماع، فقد ساق عن بعض علماء الزيدية وأئمتهم المتقدمين عددًا من الروايات التي تقدح في الشيخين، حيث أخذ برواية السيد حميدان[٢٠] عن المنصور عبدالله بن حمزة[٢١] الذي روى عن آبائه قول النبي ﷺ: "من ناصب عليًّا الخلافة فهو كافر، ومن أبى[٢٢] فقد كفر".[٢٣] كما ساق قولاً للإمام الناصر للحق من رواية يحيى بن الحسين بن أمير المؤمنين المؤيد في تفسيره للآية الكريمة: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَاد، يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾،[٢٤] حيث فسّرها بأنهم "الذين ظلموا آل محمد ﷺ تراثهم من أبيهم، وجحدوا حق أمير

المؤمنين -عليه السلام-، وزحزحوه عن رتبته التي جعلها الله له"[٢٥]. وإذا كان النص السابق يلمّح إلى كبار الصحابة أمثال الشيخين، وعثمان بن عفان، فإن النعمي في شرحه لهذا النص يصرح بذكرهم، إذ قال عن النص السابق إنه يعني: "أبا بكر، وعمر، وعثمان لأنهم ظلموا آل البيت على الميراث وجحدوا الولاية لأمير المؤمنين عليه السلام".[٢٦] وبعد أن يسوق النعمي هذه الرواية وما فيها من إدانة واضحة لكبار الصحابة، يعود فيؤكد أن هذه الرواية تدحض الإجماع الذي ادعاه الشوكاني، حيث يقول إكمالاً لشرحه السابق "فبطل دعوى الإجماع بهذا عند أهل الإنصاف الموالين لآل محمد المنزهين عن الزيغ والاعتساف" [٢٧].

وإذا كان الشوكاني يحاول في رسالته إثبات أن سب كبار الصحابة فعلُ رافضي أو إمامي لا زيدي، فإن النعمي ينتقده على ذلك؛ إذ يقول مخاطبًا له: "وغير بعيد أن تنكر هذه[٢٨] من النصوص الواردة، وترمي من ورائك هذه الروايات عن أهل البيت الطاهرين إنه من أهل الرفض والضلالات[٢٩]، تارة يقول: فلان باطني، وتارة يقول: غال، وتارة تنسب الأخيار إلى قبيح الأفعال"[٣٠]. والحال أن النعمي قادته نزعته الأيديولوجية، وتعصبه المذهبي إلى الخلط بين مسألتين اثنتين، الأولى مسألة حب آل البيت، وذكر فضائلهم، والعناية بعلومهم، والثانية مسألة سب الصحابة. الخلط هنا يأتي باعتبار أن النعمي من خلال نصوصه كان يرى أن المسألة الثانية شرط لازم للمسألة الأولى، أو بمعنى آخر المسألة الثانية ليست سوى واحدة من مقتضيات المسألة الأولى. على أن التفريق بين المسألتين عند الشوكاني كان جلياً، لكونه قد ميّزَ بينهما بكل اقتدار ووضوح حين اعتبر أن المسألة الثانية ليست إلا خصلة من خصال الروافض، وأنها ليست من أدبيات ومبادئ أئمة الزيدية وعلمائها. وللتدليل على وقوع النعمي في هذا الخلط بين هاتين المسألتين نراه يخاطب الشوكاني قائلاً: "فما أحقك أيها الفقيه لو ترسّلت على هؤلاء الذين نسبوا إلى آل محمد وشيعتهم الرفض والضلالة، وليس لهم ذنب إلا حب آل محمد، والعناية بعلومهم"[٣١]. وفي إدانة واضحة للشوكاني يصرّح النعمي بعد هذا النص أن من يأخذ بهذه الأقوال هو ناصبي.[٣٢] على أن النعمي وإن كان يبيح السب في حق كبار الصحابة إلا أنه يقرر أن فعل السب عينه ليس من خصال آل البيت، حيث قال: "وأما السب والسباب للأصحاب فليس من أخلاق النبوة، شأنهم العلم، والحلم، والاشتمال بالمروءة، دأبهم الإغضاء لأن كل حليم دأبه الإغضاء، فإن نابهم أمر صبروا"[٣٣]. ثم يخاطب النعمي الشوكاني بأسلوب مليء بالغلظة، والفظاظة، فيقول: "أما ترجع إلى الله أيها الفقيه المخذول

من تقحمك هذه الأخطاب؟!، فيا لهفي عليك من سخط الجبار، وأنت من أهل العفة والنسك، وتحمل الشنآن لآل محمد الأخيار"[٣٤].

ويحاول النعمي الولوج إلى شخصية الشوكاني كظاهرة علمية في اليمن اتسمت بالتفرد، لا سيما في مخالفتها الصريحة لمسائل عديدة للفكر الزيدي الهادوي، فيشير في نص نقدي مقذع إلى أن ذلك نابعٌ من انكباب الشوكاني على كتب أهل الحديث، حيث كتَبَ ما لفظه: "فظهر لك أيها العامل من هذا أن من قرأ[٣٥] في كتب الحديث أتى[٣٦] بهذه الشبهات، وارتكب جميع المنكرات، وتحمل الخبث، واللؤم، وسوء الظن بأهل الطاعات"[٣٧]. ويتضح هنا أن النعمي يتعامل مع كتاب الشوكاني بوصفه كتابًا مليئًا بالشبهات لا الحقائق، وأن الشوكاني فضلاً عن المنكرات التي يرتكبها يتصفُ بصفات سيئة، ناتجة عن قراءته لكتب الحديث التي يعترض النعمي على تدريسها في مساجد الزيدية، معتبرًا أن ثمة أجيالاً ظهرت من طلبة العلم في صنعاء، انكبت على كتب الحديث، وتغافلت عن ما سماه النعمي بكتب آل البيت، وكان الشوكاني هو طليعة هؤلاء الطلاب، ورائدهم الأول، وشيخهم الذي يصدرون عنه، يقول النعمي في هذا السياق: "وشيخهم الكبير صاحب هذه الرسالة الباطلة، فقد أكلم الفؤاد، وشرد الرقاد، فأين أهل الحمية في الدين؟! وأين الزيدية الميامين؟! فوالله لو يُرخى[٣٨] لهذا الفقيه الرسن، لأفتى[٣٩] بالبيع في دماء آل الحسن، فقد تعرفت من حاله ومقاله، أنه منطوٍ[٤٠] على شيء عظيم من البغض لآل محمد الطاهرين"[٤١]. ويتضح من هذا النص ما يمارسه النعمي من أسلوب تحريضي خطير، ففضلاً عن كونه يرى بطلان رسالة الشوكاني "إرشاد الغبي"، أو اتهامه له بأنه ناصبي، فإن الخطورة تكمن في تحريضه عامة الزيدية بالثورة على الشوكاني، وهو ما كرّره في موضع آخر حين أكد وجوب الإنكار على كل من يقرأ كتب الحديث في جوامع الزيدية حيث كتب: "فمن قرأ فيها في جوامع الزيدية وجب عليه النكير والتعزير"[٤٢].

لقد بدا واضحًا من خلال قراءة هذين الكتابين أن الخصومة الفكرية بين الشوكاني والنعمي بلغت مبلغًا كبيرًا، وأن رسالة "السيف الباتر" كانت معبرة عن رفض مجموعة من العلماء وطلبة العلم لأعمال الشوكاني على الصعيدين الفكري والعلمي. بل أكثر من ذلك، من الواضح أنها كانت تخفي تحتها غليان طائفي لدى فئة اجتماعية متعصبة تعارض بشدة النسق الفكري التحرري، والمشروع الاجتهادي اللامذهبي الذي تزعمه الشوكاني، وبالتالي

فإن رسالة النعمي ما كانت سوى مهمازاً لحركات المتعصبين المذهبيين في صنعاء. ولعل ما يؤكد ذلك ما أوردته بعض المصادر اليمنية من أخبار عن ثورة العامة المتعصبين في صنعاء عام ١٢١٦هـ/١٨٠١م، وكانت بدايتها في شهر رمضان من العام نفسه حين نقَلَ أحد وزراء الإمام المنصور السيد يحيى الحوثي[٤٣] من مسجد صلاح الدين إلى الجامع الكبير بصنعاء، الذي كان يغصّ بحلقات العلم، ومنها حلقة الشوكاني التي كان يملي فيها صحيح البخاري[٤٤]. وعند انتقال الحوثي إلى الجامع الكبير، بادر بقراءة كتاب "تفريج الكروب"، وهو كتاب متخصص في فضائل علي بن أبي طالب. غير أن الحوثي لم يتوقف عند سرد هذه الفضائل، وإنما أتبعها بسب الصحابة، خاصة معاوية بن أبي سفيان، الذي تكرر لعنه على لسان الحوثي.[٤٥] وكان دافع الحوثي في ذلك مذهبيًّا محضًا، في حين أن ما دفع الوزير لنقل الحوثي إلى الوعظ في الجامع الكبير سياسي بحت، يتعلق بنكايته للوزير الحسن بن عثمان العلفي[٤٦] المنافس له على السلطة والنفوذ في دولة الإمام المنصور، بوصفه وزيراً ينحدر من البيت الأموي[٤٧].

وبحسب المصادر فقد أحدث الحوثي لغطًا كبيرًا في الجامع، إذ كان يكرر لعن معاوية بن أبي سفيان، ويصرخ معه أتباعه من العامة، يلهجون بلعنه وشتمه، محدثين جلبة كبيرة، ما دفع الإمام المنصور إلى أن أمر ناظر الأوقاف الفقيه إسماعيل الشامي[٤٨] بمنع الحوثي عن الوعظ في الجامع الكبير.[٤٩] وقد بادر الشامي بإخبار الفقيه أحمد بن محسن حاتم[٥٠] القائم على شؤون الجامع، الذي بدوره أبلغ الحوثي خبر إيقافه ومنعه[٥١]. ومع حلول المساء قدم أتباع الحوثي، منتظرين واعظهم ليأتي إلى الجامع على عادته وعادتهم، غير أنه لم يأت، وحين علموا بخبر منعه وإيقافه، ثارت ثائرتهم، وتظاهروا في الجامع الكبير، يصرخون بلعن معاوية بن أبي سفيان، وانضم إليهم كل من لديه موقف سياسي معارض من الدولة، وتكاثرت أعدادهم، وأصبحوا بالألوف، فداهموا بيت الفقيه أحمد حاتم، وبيت إسماعيل الشامي، اللذين هربا من المتظاهرين. وتمكن هؤلاء المتظاهرون من تكسير أدوات هذين البيتين، وتهشيم العديد من أجزائهما[٥٢]. ثم واصل المتظاهرون سيرهم، باتجاه بيت الفقيه علي بن إبراهيم الأمير[٥٣]، وبيت الوزير الحسن بن علي بن حنش[٥٤]، وبيت الوزير الحسن بن عثمان العلفي، حيث حاصروا هذه البيوت، ورموها بالحجارة، وروّعوا سكانها من النساء والأطفال[٥٥].

وحيال هذه الأعمال تقدم بعض المصادر اليمنية تفسيرات لمسألة مداهمة بيوت هؤلاء الوزراء والعلماء دون غيرهم، حيث ذكرت أن سبب اعتدائهم على بيت الفقيه علي بن إبراهيم الأمير مرده أنه كان متصدرًا للوعظ في الجامع الكبير، ولم يكن رافضيًّا لعّانًا[٥٦]، أما الوزير الحسن بن علي بن حنش فلكونه معلنًا تسننه، متبرئًا من الرفض[٥٧]، أما العلفي فلكونه أموي النسب[٥٨].

انتهت مظاهرة هؤلاء المتعصبين بعد فضّها على يد بعض عساكر الإمام المنصور، محدثة حالة من الهلع، والخوف في كامل صنعاء، في حين بادر الإمام المنصور بعقد اجتماعٍ ضم الأمراء والوزراء وقادة الجند وبعض العلماء، وكان الشوكاني ضمن الحاضرين لهذا الاجتماع[٥٩]. وفي أثناء مداولاته أشار الشوكاني على الإمام المنصور بسجن كل المشاركين في هذه الأعمال التخريبية، كما حضّه على سجن كل العلماء والوعاظ المحرضين على التعصب المذهبي، وهم الموصوفون لديه بأنهم "جماعة من المتصدرين في الجامع للتشويش على العوام، وإيهامهم أن الناس فيهم من هو منحرف عن العترة"[٦٠]. وبسبب رأي الشوكاني وموقفه، المتسم بالصرامة والقوة، فقد أحدث ذلك اختلافًا كبيرًا في الاجتماع بين الحضور، مصدره أن ثمة فريقًا في الاجتماع كان متعاطفًا مع أفكار هؤلاء المتعصبين الثوار، في حين أن فريقًا آخر كان يرى سداد رأي الشوكاني، وضرورة الوقوف بحزم تجاه أعمال الثائرين التخريبية[٦١]. وأمام هذين الرأيين عمل الإمام المنصور برأي الشوكاني، الذي بمقتضاه اعتقل العديد من العلماء فضلاً عن المشاركين في هذه الأعمال[٦٢]؛ كان من بينهم السيد إسماعيل النعمي، الذي رغم أنه لم يشترك في التظاهر، إلا أن اعتقاله جاء لتعصبه وتحريضه العامة، حيث تم تعزيره في شوال عام ١٢١٦هـ/ يناير ١٨٠٢م[٦٣]، ومعه عدد من العلماء، ثم أُرسل إلى سجن زيلع حيث بقي فيه حتى توفي عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م[٦٤].

ولئن بدا من خلال هذا السياق أن الشوكاني كان سببًا رئيسًا في نكبة السيد إسماعيل النعمي، فإن ما ينبغي تأكيده أن موقفه الصارم من النعمي ما كان بسبب خلافه الفكري معه، ولا كان بسبب ما يحمله النعمي من تعصّب لأفكاره الزيدية الهادوية، وإنما بسبب إثارة النعمي للعامة ضد الدولة، وهو ما رآه الشوكاني فسادًا عريضًا لا يمكن السكوت عنه. وثمة قرينة تؤيد هذا الاستنتاج وتدعمه، وهي أن الشوكاني كان مختلفًا فكريًّا مع السيد يحيى الحوثي أيضًا، غير أنه لم يحمل الموقف نفسه الذي حمله ضد النعمي؛

فبعد أن خرج الحوثي من سجنه بسبب الأحداث السابقة، سعى الشوكاني في تأمين عيشه، حيث أذن له بشهود حلقته العلمية، وبات الحوثي يكتسب رزقه من خلال تحريره للأوراق في تلكم الحلقة[٦٥].

المبحث الثاني

نكبة ابن حريوة السماوي

هو محمد بن صالح السماوي، المعروف في بعض المصادر التاريخية بابن حَريوة[٦٦]. وهو عالم زيدي وفقيه ومتكلم وشاعر، لم تحدد المصادر التي أمكن الاطلاع عليها تاريخ ولادته، غير أن نشأته كانت في العقد الثاني من القرن الثالث عشر الهجري[٦٧]. حفظ القرآن الكريم في صغره، وأتقن علم القراءات، ثم أخذ على عددٍ من أكابر علماء عصره، مثل عبدالله بن محمد الأمير[٦٨] وغيره[٦٩] حتى مهر في النحو والصرف والمعاني والبيان وأصول الفقه[٧٠].

بدأ خلافه الفكري مع الشوكاني على إثر تأليفه لكتابه المشهور "الغطمطم الزخار المطهر لرياض الأزهار من آثار السيل الجرار". وهذا الكتاب -كما يتضح من عنوانه - في جوهره انتصارُ لكتاب "الأزهار"، وفي الوقت عينه ردُ على كتاب الشوكاني المسمى "السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار"، الذي وضعه في نقد كتاب "الأزهار"، واسمه الكامل "الأزهار في فقه الأئمة الأطهار"، تأليف العلامة أحمد بن يحيى المرتضى[٧١]، أحد أشهر علماء الزيدية في القرن التاسع الهجري. ويعد كتاب الأزهار أشهر المتون الفقهية في المذهب الزيدي على الإطلاق، لكونه كتابًا يحملُ خلاصة ما اعتمده أئمة آل البيت من آراء فقهية، ولذلك فإن هذا الكتاب ينحو أن يكون كتابًا مدرسيًّا للمقلدين من الزيدية، لما انطوى عليه من اختصار في اللفظ، ووضوح في المعنى، وجزالة في الأسلوب. ولذيوع هذا المتن الفقهي فقد تناوله علماء كثيرون من علماء الزيدية شرحًا، وتعليقًا، وترجيحًا، ونقدًا[٧٢]. وكان من بين هؤلاء الشوكاني الذي ألّف كتابه "السيل الجرار"، ليسهم مع من سبقه من العلماء في شرح هذا الكتاب، والتعليق على عباراته، والوقوف على آرائه.

والحال أن الشوكاني انتهج في "السيل الجرار" نهج من سبقه، إذ كان ينقل عبارات الأزهار أولاً ثم ينطلق في الشرح والتعليل مخالفًا أو موافقًا، مستحضرًا في كل مسألة استنتاجات واستنباطات متنوعة، بدءًا بالدلالات اللغوية والمعاني، وانتهاءً بالأحكام الفقهية والأصولية، مبرهنًا على ذلك بما أمكنه من أدلة نقلية وعقلية. وكانت مصادره في هذا الكتاب ما توفر لديه من كتب الحديث وعلومه، ومصنفات الفقه وأصوله، فضلاً عن كتب التفسير والأدب، وما يتعلق بعلوم اللغة، والبلاغة. ولم يقتصر الشوكاني في "السيل الجرار"

على تناول متن "الأزهار" فحسب، بل عرّج أيضًا على أقوال الشراح السابقين وآرائهم من العلماء المجتهدين، مثل الجلال، والمقبلي، وابن الأمير، متناولاً إياها بالشرح أو النقد[٧٣].

ورغم أن نصوص "السيل الجرار" وعباراته تتسم بصورة عامة بالخشونة والحدة سواءً عند تناوله متن "الأزهار"، أو حتى عند مناقشته لأقوال شراحه ومعلقيه من العلماء المجتهدين، إلا أن الشوكاني قرّر –بكل موضوعية– في مقدمة "السيل الجرار" أن كتاب "الأزهار" هو المرجع الفقهي الأبرز في زمنه لأهل اليمن، إذ يقول عنه إنه "مَدرَسُ طلبة هذه الديار في هذه الأعصار، ومعتمدهم الذي عليه عباداتهم ومعاملاتهم المدار"[٧٤]. ثم يفصح الشوكاني عن غرضه من تأليف "السيل الجرار"، فيقول: "وكان قد وقع في كثير من مسائله الاختلاف بين المختلفين من علماء الدين والمحققين من المجتهدين، أحببت أن أكون حكماً بينه وبينهم، ثم بينهم أنفسهم عند اختلافهم في ذات بينهم".[٧٥] وهنا يتضح أن الشوكاني، إيمانًا منه بأهمية هذا الكتاب، ولأن ثمة اختلافًا بين علماء الزيدية حول بعض مسائله، رأى أن يدلي بدلوه، ويضرب بسهمه[٧٦]، وأن يضع نفسه بما أوتي من علم شرعي حَكَمًا بين ما يقرره هذا الكتاب وما يراه غيره من العلماء المجتهدين، أو بين الاختلافات التي وقع فيها هؤلاء العلماء عند تناولهم لهذا الكتاب.

ولئن بدا أن هدف الشوكاني من هذا الكتاب يحمل في طيه الروح العلمية الصادقة، فإن السماوي وبسبب تعصبه للمذهب الزيدي ما كان له أن يقتنع بهذا الهدف المعلن، إذ رأى أن ثمة هدفاً مضمرًا رام الشوكاني تحقيقه، وهو رغبته العارمة في طمس المذهب الزيدي الذي يسميه السماوي "مذهب أهل البيت"، حيث إنه في مقدمة كتابه "الغطمطم الزخار"، وبعد أن انتقد الدعوة الوهابية، ورأى أن فكر الشوكاني يشكّل امتدادًا فكريًّا لها، قال: "غير أن أدناسهم قد كانت علقت ببعض من ينتحل العلم ويدعيه من أهل صنعاء اليمن، وراموا -لولا [أن] خيب الله مساعيهم الخبيثة- أن يضرموا في أرجائها نيران الفتن، رغبة في طمس مذهب العترة المطهرين، وطمعًا في إماتة شريعة سيد المرسلين، ومحبة لإظهار مذهبهم ودينهم الغَوِيّ المفتري"[٧٧]. وعندما وصل السماوي إلى ذكر كتاب "السيل الجرار"، فإنه رآه كتابًا لا يخرج عن سياق الكتب الطاعنة في المذهب الزيدي، والرامية إلى القضاء على تراثه الفكري والديني، حيث قال: "وحين انقطعت منهم الأطماع لم يبق في يد كبير أولئك السقط الرعاع، سوى تسويد أوجه الرقاع، وبث المؤلفات في الأودية والأمكنة والبقاع، المشتملة على الطعن في

مذهب العترة الأطهار، والقدح في معتمدهم ومعتمد شيعتهم أعني كتاب الأزهار"[٧٨]. ويضيف السماوي قائلاً: "فلما برز إلى الوجود سيله الجرار ظنًّا منهم أن طاهرات تلك الأثمار... سيعلق بها ما يكدر رونقها... ولم يدر أن ذاك من أضغاث أحلامه، وأن قدر البدر المنير أجلّ من أن يطمّه السيل"[٧٩]. وبعد أن سرد السماوي بعبارات غاضبة وموتورة قصة "السيل الجرار" شرع في ذكر سبب تأليفه لـ "لغطمطم الزخار"، فقال في لغةٍ مُجحفة وفاحشة، لا تخلو من الشتم والسباب: "غير أن الشيعة الكرام لما أقلقهم نباح ذلك العاوي، وشغلهم تصويت ذلك المهر الغاوي، راموا مني إلقام الكلب الحجر، بإزالة العين من نجاساته والأثر، فأسعفتهم بإرسال خليج من الغطمطم الزخار، وافياً بقلع عين ذلك النجس، مطهراً لكل تلك الآثار، لما رأيت إسعافهم فرض عين"[٨٠].

وبصرف النظر عما في هذا المصنف من عبارات جارحة، وألفاظ نابية –سنعرّج عليها لاحقًا– فإن القارئ لكتاب "الغطمطم الزخار"، والناظر في نصوصه، والفاحص لحججه، والمتمعن في استدلالاته، لا يسعه سوى الاعتراف بعلو كعب مؤلفه، ورسوخ معرفته الشرعية والأصولية، وقوة حجته، ومتانة أدلته[٨١]، بما يؤشر على أنه من أكابر علماء عصره. ولعل ما يؤكد هذا الرأي هو النعوت التبجيلية الغزيرة التي حازتها شخصية السماوي عند المؤرخين الذين ترجموا له، فقد وصفه العمراني في إتحافه بأنه: "جمع بين التحقيق في علوم العقل، والتدقيق في علوم النقل"[٨٢]. كما نعته عاكش بأنه: "ذو القدم الراسخ في العلوم العقلية، والذكاء الباهر، وجودة الألمعية"[٨٣]. أما صاحب "نيل الوطر" فقد استهل ترجمته له بقوله: "الشيخ، العلامة، الحافظ، المحقق، الفهامة، البارع، الألمعي"[٨٤]. وإذا كانت هذه الأوصاف التبجيلية يمكن أن تتسم بالعموم، فإن الكبسي في نفحاته أثنى على السماوي من خلال رده على الشوكاني وكتابه "السيل الجرار"، فقال: "فتصدى هذا العالم للرد عليه بما يعجز عنه فحول العلماء، ونحارير الحفاظ، وأوضح في الرد، وأفاد وأجاد"[٨٥]. أما العلامة الجنداري فقد أشاد بعلمه ودقة نظره في كتابه "الغطمطم"، بقوله: "ومن طالع الغطمطم علم أن لصاحبه يدًا قوية، وأنظارًا جميلة، استنهض بها خيل الأدلة ورجلها، وتكلم عليها، وذكر الجرح والتعديل، فأحسن الجدال"[٨٦]. ولا ريب أن منطق السماوي المتين، وعُدّته النقدية التي صوّبها نحو السيل الجرار، وقدرته الكبيرة على الحِجَاج والجدل في كتابه "الغطمطم" ما كان لها أن تكون على هذا النحو من الجزالة والصلابة لولا اشتغال السماوي بالفلسفة والمنطق وعلم

الكلام بعد أن تضلّع من علوم الشريعة والعربية، وهذا ما قرّره عاكش الضمدي الذي أورد في هذا السياق نصًّا ثمينًا جاء فيه: "ثم مال إلى تعلم المنطق، وما يتوصل به إليه من العلوم العقلية الحكمية فبرع في فنونها الرياضية والطبيعية والإلهية"[٨٧]. ويؤيده أحد المصادر اليمنية إذ ورد فيه ما لفظه: "ثم بدا له طلب علوم الأوائل فأدركها، وأخذت بمجامع لبه فما تركها"[٨٨].

على أن السماوي لم يكمل تأليفه لكتاب "الغطمطم"، إذ أمر الإمام المهدي بسجنه، ثم أمر بقتله. وفي هذا السياق تختلف المصادر في ضبطها لتاريخ مقتله، فصاحب حوليات يمانية وضعه ضمن حوادث العام ١٢٣٩هـ/١٨٢٣م[٨٩]، في حين وضعه مؤرخ يمني آخر ضمن سرده لأخبار عام ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م[٩٠]، غير أن الراجح أنه كان في عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥م باعتبار أن عاكش الضمدي قد نصّ على هذا التاريخ[٩١]. ما يجعلنا نأخذ بقول هذا الأخير ونترك ما سواه من الأقوال، كونه أحد تلامذة السماوي، وممن اعتنى بأخباره، بوصفه قد أفرد له ترجمة خاصة[٩٢]، فضلاً عن أن ثمة من المصادر الأخرى ما يؤيده[٩٣]. بل إن هذه المصادر لم تكتف بتحديد العام الذي قُتل فيه، بل حدّدت الشهر أيضًا، إذ أجمعت على أنه كان في محرم من عام ١٢٤١هـ/ أغسطس ١٨٢٥م، وأنه صُلب، وظل مصلوباً في الحديدة لثلاثة أشهر، حيث أنزل في جمادى الأولى من العام نفسه[٩٤].

ولأن مقتل السماوي كان بهذه الكيفية، ولأنه في ضوء تلكم المصادر ذهب ضحيةً لعنف السلطة، فقد اتخذت منه مجالاً خصبًا لسرد العديد من التفاصيل المدهشة، والأخبار الغريبة، التي أخذت بُعدًا ميثيولوجيًّا خارقًا للعادة، فصاحب حوليات يمانية أشار إلى أن السماوي ظل مصلوبًا عدة أشهر ومع ذلك فإنه "لم يتغير بدنه، ولا أنتن، ولا انفصلت أعضاؤه مع أن من مات في تهامة، لم يلبث غير ساعة وينتن"[٩٥]. وإذا كان صاحب النص السابق يحدثنا بهذا الخبر الغريب، الذي يكشف فيه عن حالة جسد السماوي وهو مصلوب في الحديدة، فإن العمراني يأتي بخبر آخر ليس عن حالة جسده، وإنما عن حالة أخرى أشد غرابة وإدهاشًا، ذلك أنه نقل عن غير واحد من الرواة، أن السماوي حين كان مصلوباً، فإنه كان يصدرُ منه تلاوة مسموعة للقرآن الكريم! وقد أسند العمراني هذا الخبر إلى عدد من الرواة، وقال عنه "هذا الإسناد كالأخذ باليد فاشدد على صحته"[٩٦]. وفي سبيل التأكيد على صحة هذا الخبر ساق العمراني أيضًا خبرًا مشابهًا للخبر السابق عن راوٍ آخر، وصفه بأنه "ثقة

ضابط سني، طيب السر والجهر"[٩٧]، حيث نقل عنه قوله: "لم أزل أسمع تلاوة القرآن من جهة خشبة الصلب فأردت استثبات ذلك، فارتقبت غفلة الرفيق في ليلة معتمرة، حاضر القلب، ومشيت إليها وأنا أسمع التلاوة إلى أن قربت منها قيد رمح، انقطع الصوت وقد حصلت على ما قصدت من الربح، فلما فارقت ذلك المحل عادت التلاوة"[٩٨]. وإدراكًا من العمراني بغرابة هذا الخبر، بل كونه معجزة خارقة تصادم العقل والمنطق، فإنه بعد أن ساق هذه الروايات، وعزاها إلى أصحابها، وحرصًا منه على طمأنة القارئ، وتأكيد صحتها له، ونفي ما فيها خوارق، نبّه إلى أن أصحاب هذه الروايات هم من أهل السنة، وليسوا من الشيعة المتعصبين للسماوي، حيث خاطب القارئ قائلاً: "فتيقن بهذه الأخبار الحقة التي ليس فيها موهوم، ولا من يحمله على الكذب ما هو بواقعته من أهل الرفض مهموم، فإن هؤلاء المحدثين من أهل السنة ليس لهم باعث على الإخبار إلا شهود الواقع، وما ترتب عليه لا الظن، وهو شاهد صدق على نجاة ذلك المظلوم، وما هو حقٌ لحسن ختامه برحيق مختوم"[٩٩]. وعلى غرار العمراني الذي لم يكن الوحيد في تفرده بهذا الخبر، ، فقد ورد في إحدى الحوليات ما يناظره، حيث جاء فيها ما لفظه: "وأخبرني رجلاً من بني صائم الدهر أنهم كانوا يسمعون الذكر مدة ما بقي مصلوبًا هناك، وانقطع بعد ذلك، والله أعلم"[١٠٠]. وإذا كان العمراني لا يحدد آيات القرآن أو السورة التي يتلوها السماوي، فإن الجنداري في جامعه حدّد السورة المقروءة إذ قال: "وكان يسمع منه وهو مصلوب قراءة أول طه"[١٠١].

ولئن كانت المصادر السابقة تتفق على أن السماوي حين أمسى مصلوبًا كان له صوت مسموع بقراءة القرآن والذكر، فإن الضحياني في جواهره يورد خبرًا مغايرًا عن تلك المصادر، إذ يقرر أن ثمة صوتًا لم يكن يصدر عن السماوي وهو مصلوب، وإنما كان يصدر من قبره بعد أن دُفن فيه، حيث قال عنه إنه "يتلو سورة طه في هدوء من الليل من قبره"[١٠٢]. ويتسق الكبسي في نفحاته مع صاحب الجواهر المضيئة، فيقول: "أجمع الموالف والمخالف على سماع تلاوة القرآن من قبره ليلة الاثنين والجمعة، ونقل ذلك الأثبات، وأخبر به الثقات"[١٠٣].

إذن، نحن هنا أمام روايات وفيرة وعديدة، تتسم بالغرابة الشديدة، وهي رغم تفاصيلها الغريبة والأسطورية، ورغم كونها تعد على صعيد الواقع التاريخي ممتنعة عقلياً، إلا أنها تحمل تنوعًا وتعددًا سواءً في طرقها أم في مصادرها. وهذا من شأنه أن يُثيرَ تساؤلاً غاية في الأهمية عن مغزى كثرة مثل هذه الروايات؟! وما السر في تواطؤ مصادرها، وتضافرها على

سردها بهذه الكيفية المفارقة للعقل والواقع؟! ثمّ إلى ماذا تحيل؟!

إن هذه الروايات –في تقديري– ما كانت إلا انعكاسًا لمقدار فاجعة إعدام السماوي، وكون مقتله في المخيال الشعبي آنذاك ينم عن رزية فادحة، ومصاب جلل، وجرحٍ غائر، ترك آثارًا كبيرة في وجدان المجتمع، وفي ذاكرته التاريخية. إذ من الواضح أن هذه الروايات ذات الدلالات الرمزية والميثيولوجية الكثيفة ما كان هدفها الوحيد إثبات تديّن السماوي فحسب، ولا كان مرادها إثبات واقعية هذه الأشياء التي تشبه معجزات الأنبياء، بقدر ما كانت تروم إثبات مظلوميته، وتأكيد شهادته، وأن مقتله يمثل ظلمًا فظيعًا، وانتهاكًا خطيرًا، وجريمة لا يمكن غفرانها. هذه الروايات من جهة أخرى يمكن أن تحيل إلى ما يعتمل في الذاكرة والوجدان الاجتماعي آنذاك من أسى حيال إعدام السماوي، لكون إعدامه بهذه الكيفية البشعة والقاسية، مفارقة للعدل، ومرتبطة بالظلم، ومؤشرة على عنف السلطة، وإكراهاتها. كل هذه الأمور من شأنها أن تكوّنَ في ذهنية ذلك المجتمع ومخياله أخباراً تؤمثل السماوي، أي تقدمه في صورة مثالية متعالية، وهي صورة تستمد مادتها من تلكم القصص والحكايات والأخبار، التي تنزع نحو الغرابة واللامعقول، وهي جميعًا تنوء بدلالات رمزية ودينية كثيفة، تؤشر في نهاية المطاف على خيرية السماوي، وصلاحه وتقواه، وتشي بأنه معدودٌ في الشهداء، في مقابل فجور السلطة التي قتلته، وظلم جلّاديه الذين أزهقوا روحه. ولعل ما يؤيد هذه التفسير أن المصادر التي سردت هذه الخوارق هي ذاتها التي أدانت مقتل السماوي، واعتبرته جريمة لا تغتفر؛ فصاحب "حوليات يمانية" حين انتهى من سرد خبر مقتله، قال عن قاتليه: "لا رحمهم الله، لا في الدنيا، ولا في الأخرى، ولم يروا بعده خيرًا"[١٠٤].

ولم تكن كل هذه الأخبار ذات الطابع العجائبي والغرائبي هي الوحيدة، ذلك أن ثمة أخبارًا أخرى يمكن أن تؤخذ في هذا السياق أيضًا، منها ما أورده عاكش الضمدي في حدائقه، إذ قال: "وسمعت بعض فضلاء البندر المذكور يحكي أن رجلاً أراد أن ينزع ثيابه من عليه، فسمع هاتفًا يقول: دع ثياب المظلوم عليه"[١٠٥]. ثم يتوقف عاكش عند هذا الخبر كونه خبرًا لا يمكن أن يسيغه العقل، فيقول بلسان المتشكك المرتاب: "وحقيقة الحال عند الله –تعالى–، والله يتجاوز عنا وعنه، ويعامل الجميع بفضله وعدله"[١٠٦]. على أن عاكشًا وإن بدا عليه الارتياب في نصه السابق، فإن ما فيه من خبر أورده الضحياني من غير تشكك،

وبموثوقية أكبر فقال: "وروي أن رجلاً أراد أخذ قميصه فسمع صوتًا لا يرى شخصه، دعوا قميص المظلوم"[١٠٧].

ودلالة هاتين الروايتين وإن بدا أنهما مقتصرتان على السماوي، من حيث كونهما تشرحان حالته بعد موته، إلا أنهما في الواقع تشرحان حالة المخيال الاجتماعي الذي أنتجهما؛ ذلك لأن السماوي عند مقتله بدا عاجزًا لا يملك من أمره شيئًا. ولأنه وقف أعزلاً ووحيدًا، ومستسلمًا لقهر السلطة، ولأنه لم يكن يأوي إلى ركن شديد يحميه من معذبيه وقاتليه، ولأن المتعاطفين معه كانوا عاجزين عن حمايته على صعيد الواقع التاريخي، فقد كانت كل هذه الأمور حاضرة بكثافة في الوجدان الاجتماعي، ما جعله بشكل لا واعي ينتج أخبارًا وروايات تضع السماوي بعد موته، في صورة مناقضة لصورته قبل موته، تقف على النقيض من حالة العجز والاستسلام، إلى حالة القدرة على الرد والمواجهة، أو بمعنى آخر بادر المخيال الاجتماعي هنا. واستشعارًا منه أن السماوي في حياته وعلى صعيد الواقع التاريخي كان وحيدًا متروكًا بلا ناصرٍ ينصره ولا حامٍ يحميه، بادر إلى تصويره في مماته وعلى الصعيد المتخيل على أنه كان منصورًا ومحميًّا.

وإذا انتقلنا من النظر في الروايات الشارحة لكيفية مقتل السماوي، إلى النظر في الروايات الشارحة لأسبابه، فإننا نجد أنها لا تكاد تخرج عن أسبابٍ ثلاثة هي:

أولاً: صدور فتوى من ابن حريوة السماوي عرّضت بحكم الإمام المهدي، منتقدة الأوضاع الدينية والاجتماعية فيه. هذه الفتوى ذكرتها بعض المصادر غير أنها اختلفت في دوافع صدورها، فالعمراني في إتحافه أشار إلى أنها صدرت بشأن اعتداء رجل نصراني على أحد المسلمين؛ حيث ذكر"أن رجلاً من ملة النصارى، انتهك الذمة، فلطم مسلمًا، وتخطى الحرمة وتجارى"[١٠٨]. ويضيف العمراني أن الملطوم أراد حقه ممن تعدى عليه، غير أنه لم يتم إنصافه[١٠٩]، مما حدا به إلى أن وجّه إلى ابن حريوة السماوي "سؤالاً يستفتي عما حدث، فأجاب [ابن] حريوة بما تقتضيه أحكام ملة الإسلام ... ونفخ في تحسين مناهج العدل، وتخشين مناهي الجور لمجرد المناكير"[١١٠]. ويُفهم من سياق نصوص العمراني في "إتحاف النبيه" أن السماوي في هذه الفتوى عرّضَ بحكم الإمام المهدي وشنّع عليه، وهو ما يتفق إجمالاً مع ما ورد في "نيل الوطر"، وإن كان يختلف معه اختلافًا طفيفًا حول دوافع صدورها. إذ ذكر صاحب "نيل الوطر" أن مردها حادثة

وقعت في ميناء المخا، وتتلخص في أن فقيهًا يمنيًّا طَعَنَ بحّارًا أو تاجرًا إفرنجيًّا حاول أن يعتدي على امرأة[١١١]، وعلى إثر ذلك فقد سُجن هذا الفقيه، ورُفع أمره إلى الإمام المهدي، ونتيجة لذلك فقد برَزَ تساؤلُ لعلماء الزيدية حول الأحكام الشرعية لهذا الحادث، وما هي الإجراءات الصحيحة شرعًا في مثل هذه الواقعة، وقد وصل هذا السؤال إلى ابن حريوة السماوي، الذي أصدر فتوى، شنّ فيها حملة شعواء على الإمام المهدي، منتقدًا أحواله ومصرحًا بتهاونه في الدين، وكانت هذه الفتوى هي السبب المباشر وراء سجنه ثم قتله[١١٢].

وحيال هذه الفتوى وما جرّته من بلاء على ابن حريوة السماوي، فإن ما ورد في "حوليات يمانية" يتسق مع ما ورد في "إتحاف النبيه" و"نيل الوطر"، إذ ذكر صاحب الحوليات أن فتواه كانت وراء نكبته من دون أن يشير إلى دوافعها، مضيفًا أن بعض العلماء -لم يحدد أسماءهم - اطلعوا عليها وأبلغوا الإمام بمضمونها[١١٣]، وأن من هؤلاء العلماء "من كفّره، ومنهم من فسّقه، ومنهم من قرر فيه الزندقة"[١١٤]. وجميع هذه الروايات تتسق عمومًا مع رواية الكبسي في نفحاته، فبالرغم من أن هذا الأخير لم يشر إلى فتوى السماوي، إلا أنه ذكر أنه أنكر على الإمام المهدي، إذ قال: "فلما قام العلامة المذكور بما وجب ... وأنكر المنكرات التي اعتمدها، اجترأ عليه هذا[١١٥] عبدالله بن المتوكل، وبطش به بطش جبار عنيد، ومعتد مريب"[١١٦]. وهكذا يتضح مما سبق أن ثمة عددًا من المصادر اليمنية تتضافر على أن فتوى السماوي، وإنكاره على الإمام المهدي، كان سببًا وراء نكبته، التي آلت إلى مقتله عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥م.

ثانياً: لم يكتف العمراني بالإحالة على فتوى السماوي من حيث كونها سبب نكبته، ذلك أنه نصّ على أن الشوكاني -بسبب خلافه الفكري معه- استغل هذه الفتوى في تحريض الإمام المهدي ضده[١١٧]. وإذا كان العمراني ينص صراحة على أن ثمة دورًا تحريضيًّا خطيرًا قام به الشوكاني تجاه ابن حريوة، مستغلاً ما ورد في فتواه من انتقاد للإمام المهدي فإن صاحب "نيل الوطر" فضلاً عن صاحب "حوليات يمانية" كلاهما لم يشر إلى الشوكاني مطلقًا، وإنما اكتفيا بذكر الفتوى الصادرة منه، وكونها السبب المباشر في نكبته. على أن ثمة مصادر أخرى أكدت ما أكده العمراني، فقد ذكر صاحب "الجواهر المضيئة" أن الشوكاني كان وراء مقتل ابن حريوة، إذ يقول في هذا

السياق: "ثم إن الشوكاني والرباعي وشيا به إلى الظالم الغشوم المهدي عبدالله، فقبض عليه عاشر محرم الحرام سنة ١٢٤١هـ، وأنزل إلى الحديدة، وأمر متوليها فتح بن محمد بقتله وصلبه، فقتله وصلبه"[١١٨]. ويقول عن الشوكاني في موضع آخر: "ورُوي أنه ممن سعى[١١٩] بإمام الشيعة محمد بن صالح السماوي إلى الدولة حتى استباح دمه، وبذلك استذلّ الشيعة في صنعاء ونواحيها"[١٢٠]. وإذا كان العمراني في إتحافه، والضحياني في جواهره يصرحان بدور الشوكاني في نكبة السماوي، فإن ثمة روايات أخرى تشاطرهما في ذلك، بوصفها أشارت إلى ما ينم عن دور الشوكاني في هذه الواقعة. فالجنداري ذكر نكبة السماوي في سياق خلافه مع الشوكاني، ورده على كتابه "السيل الجرار"، حيث قال: "فرد عليه الشيخ كتاباً سماه الغطمطم الزخار، وأغلظ في المقال ... فلما وصل إلى صلاة الخوف، وشى[١٢١] به الوشاة إلى المهدي"[١٢٢]. على أن الجنداري، وإن لم يصرح في النص السابق بأسماء هؤلاء الوشاة، إلا أنه ذكرهم في موضع آخر حيث قال: "ووشى به أهل السنة كالشوكاني والرباعي".[١٢٣] وهكذا يتضح أن جملة من المصادر اليمنية تتواتر على أن الشوكاني كان ضالعًا ضلوعًا مباشرًا في نكبة ابن حريوة السماوي، بحيث تضعه سببًا مهمًّا وموازيًا يتساوى مع السبب الأول، ولا يقل عنه، والمتمثل في إنكاره على الإمام المهدي، ومعارضته السياسية له.

ثالثاً: تشير بعض المصادر إلى أن نكبة السماوي مردها اتهامه بالزندقة، والردة عن دين الإسلام، فالشجني في تقصاره يصف السماوي بأنه "زنديق، كان ينحو نحو دين الفلاسفة".[١٢٤] كما نعته بأنه "كان متظاهرًا بالزندقة، والطعن في الإسلام بغير تحاشٍ في ذلك حتى انتهى حاله إلى الطعن على صاحب الشريعة الإسلامية -صلى الله عليه وآله وسلم-"[١٢٥]، مضيفًا بأنه"كان يستحل المحرمات الموجبة للحدود من دون مبالاة، بل قد يتظاهر بذلك على وجه المباهاة"[١٢٦]. ولم ينفرد الشجني بذكر هذا السبب، بل وافقه عليه عاكش الضمدي في حدائقه؛ إذ قرر أن انصراف السماوي إلى كتب الفلسفة كان السبب وراء تكفيره، ومن ثم نكبته، حيث قال: "وبسبب ميله إلى علوم الحكماء من الفلاسفة نسب إلى انحلال العقيدة، وقد انتهى حاله إلى أن أُغري عليه سلطان عصره عبدالله بن أحمد الملقب المهدي"[١٢٧]. على أن الشجني وعاكش، وإن بدا

لنا أنهما يتفقان على أن ثمة من يرمي ابن حريوة السماوي بالزندقة، إلا إنهما يختلفان في صحة هذه الدعوى. فالشجني يسرد هذه الدعوى من موقع المتبني لها، في حين أن عاكشًا يسردها على أنها خبر شائع عنه من غير أن يدعي تبنيها، بل إنه توقف عندها مليًّا، واستفاض في مناقشتها، إذ يقول في هذا السياق موضحًا اختلاف الناس حول السماوي: "والناس من أهل صنعاء في حاله على طرفي نقيض، فبعضهم يتشيع فيه، ويثني على تحقيقه في العلوم، وأنه كامل الإيمان صحيح العقيدة ... وبعضهم يعكس الأمر وينسب إليه رأي الفلاسفة، والتحامل على أفاضل الصحابة، وعلى حملة الشرع المحمدي من أهل زمانه"[١٢٨]. ثم يقول عاكش، بما يبرهن على موضوعيته ودقته وتحريه في هذا الأمر، أنه سأل أحد خوّاص السماوي عنه،[١٢٩] "فأثنى عليه غاية الثناء، وأطرى فيه نهاية الإطراء، وأنه من حملة الحجة، ومن أئمة العلم، والعمل، وما جرى عليه إنما هو لأغراض في نفوس المعاصرين له، وبرأه عما نسب إليه، والعلم عند الله – تعالى–، ومجمع الظالم والمظلوم بين يديه"[١٣٠]. العمراني بدوره أدلى بدلوه في هذه المسألة مؤكدًا إيمانه، نافيًا زندقته إذ قال: "وقد كان حليف القرآن يحفظه عن ظهر قلب، يواظب[١٣١] على الخمس، لا يؤخر فرضًا عن أول وقته ولا يحتاج إلى منبه، يبادر إتيان المسجد الجامع على بعد حين، يسمع الآذان فيلبي منادي ربه"[١٣٢].

وبالعودة إلى الشجني وما ادعاه من زندقة ابن حريوة، فلئن كان لا يفتأ في تأكيد هذه الدعوى، فإنها ما كانت –في تقديري– سوى افتراءً واضحاً، أو بلغة أقل حدة ما كانت لتخلو من المبالغة، غرضه في ذلك تبرير مقتل السماوي، وإيجاد مسوّغ لفعلة الإمام المهدي الشنيعة في حقه، عبر إظهاره بمظهر الحاكم الذي يغضبُ لدين الله، ويغار على حرماته. يضاف إلى ذلك أن تبني الشجني لهذه الدعوى تحديداً، يمكن أن يؤخذ في إطار تعصبه لشيخه الشوكاني، لما بين الرجلين – أي الشوكاني والسماوي – من خصومة فكرية حادة، وبالتالي فقد سعى جاهدًا إلى تشويه صورة السماوي، مستغلاً صرامة الوعي الديني العام آنذاك من مسألة الزندقة والتجديف والطعن في الدين. ولعل ما يؤكد هشاشة هذه الدعوى، وكونها لا تثبت في حق السماوي، أن الشجني نفسه لم يكتف باتهام السماوي بالزندقة فحسب، بل عاد واتهمه بالرفض، وذلك في سياق تناوله للخلاف الدائر بينه وبين شيخه الشوكاني، إذ يقول: "فلما صنف شيخ الإسلام السيل الجرار، انقلب رافضيًّا خبيثًا، وسعى في جعل حاشية عليه

ليتستر بذلك عن فعله المذموم"[١٣٣]. وهنا وبغض النظر عن استحالة الجمع بين الزندقة والرفض، من حيث كون كل مفردة تنطوي على دلالات مغايرة لا تتسق مع الأخرى، فإهي وإن تم استبعاد زندقة السماوي بناءً على القرائن والشواهد السابقة، فإن من الموضوعية والعلمية أن نمعن النظر في مسألة رافضيته، عبر تتبع المصادر التي ناقشتها، أو عبر استنطاق نصوص السماوي ذاته. وفي هذا السياق، ينفي الجنداري في جامعه نفيًّا قاطعًا لها، إذ قال في سياق دفاعه عنه ما لفظه: "وليس فيه منه شيء، والموجود بخطه الترضية على المشايخ، ولكن كان شديد النصر على[١٣٤] انتقاص آل محمد، وهي سجية كل مؤمن"[١٣٥]. أما العمراني في إتحافه فقد عرّج على هذه المسألة، نافيًا ما نفاه الجنداري من قبل، حيث قال: "وعندي أن ثوب المترجم من الرفض طاهر، وعند الملك الحق العدل المبين حقيقة الغامض"[١٣٦]. على أننا إن أمعنّا النظر في نصوص كتابه "الغطمطم"، سنجد أن بعضًا من تلكم النصوص قد انطوت على عبارات وألفاظ جارحة وناقدة تدين أفعال بعض الصحابة، بما يؤكد ما ذكره الشجني عنه، وفي الوقت عينه يمثّلُ استنطاق هذا النصوص نقضًا كاملاً لتبرئة العمراني والجنداري له من تهمة الرفض. فحين تناول ابن حريوة حادثة السقيفة قال ما لفظه: "فمن المنهي أيضًا ما صدر من أصحابه يوم السقيفة من نبذ ما عهده إليهم وراء ظهورهم إلا اليسير، فكانوا كما أخبر الله -تعالى- عنهم بقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[١٣٧]"[١٣٨]. ثم يقرر ابن حريوة أن "الذين حفظوا العهد ممن لم يقض نحبه هم اليسير، والكثير بدلوا فحقّ فيهم ما قاله تعالى في الآية بعدها: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾[١٣٩] وهم الذين حفظوا العهد، ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾[١٤٠]، وهم المبدلون إذ كان تبديلهم بعده دليل أنهم إنما أظهروا الإسلام، وباطنهم الكفر والميل مع الدنيا"[١٤١]. وعند هذا النص الخطير الذي يستبطنُ تكفير الصحابة، يتضح أن الشجني في مسألة رافضية ابن حريوة لم يكن مبالغًا، وهي في هذا السياق رافضية ليست بمعناها المذهبي المرادف للجعفرية أو الاثني عشرية، وإنما بمعناها التاريخي القديم المرادف لبغض كبار الصحابة، والتثريب عليهم بسبب مبايعتهم أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وعدم مبايعتهم علي بن أبي طالب، ولعل ما يعطي صحة هذا التأويل أن ابن حريوة في موضع آخر يقول: "ما زال الشر ينمو من يوم السقيفة إلى آخر أيام عثمان، لإسناد الأمر إلى غير أهله، ومخالفتهم أمر الله ورسوله"[١٤٢].

إن الإقرار برافضية السماوي، وموقفه الحاد من كبار الصحابة، وصحة ما ذكره الشجني عنه في هذا الخصوص، لا يعني مطلقاً أن كتابة الشجني وتناوله لنكبة السماوي كانت كتابة موضوعية، أو حتى نزيهة، ذلك أن الناظر إلى قراءته الكلية لتلكم النكبة، وبكافة أبعادها، سيجد أنها قراءة مجحفة وقاسية. ولعل ما يبرهن على ذلك سرده لنكبته بلغة تفيض بالتشفي والرضا إذ يقول: "فما كان بأسرع من أن وقع في شباكه، وارتطم في ارتباكه، وعُزّر تعزير السوقة من أمثاله، وأهين بأنواع الإهانة من الكرابيج وبالأعصي[١٤٣] مرات ... وجعل الله الانتقام منه للإسلام وأهله بسطوة إمام العصر العظيم الإمام المهدي عبدالله بن الإمام المتوكل حفظه الله"[١٤٤]. ثم يواصل الشجني حكايته عن مقتل السماوي بعبارات حانقة، وراضية بما حصل له، فيقول بعد أن أورد سجنه في جزيرة كمران، ثم إخراجه إلى بندر الحديدة: "فأُخرج فقُتل أشر قتلة سُمع بها، وصُلب، ثم ما زال مصلوبًا حتى تناثرت عظامه"[١٤٥].

وإذا كانت رافضية السماوي تبدو واضحة من خلال بعض نصوصه في كتابه "الغطمطم"، فإن هذه المسألة حتى وإن ثبتت ما كانت لتكون سببًا حقيقيًّا وراء مقتل السماوي، ما يبرهن على ذلك أن صاحب "حوليات يمانية" يقرر أن دعوى رافضيته وحتى زندقته لم تظهر إلا بعد أن أعلن السماوي بفتواه الشهيرة معارضته لسياسة الإمام المهدي، وانتقاده اللاذع لحكمه[١٤٦]. وهذه الدعوى ما كانت سوى ذريعة تذرّع بها المهدي في إزهاق روح السماوي.

إن ما يهمنا في هذا السياق هو التحقيق بشأن دور الشوكاني التحريضي في هذه النكبة، وتمحيص أثره فيها، وذلك لكي ندرك مدى استغلال الشوكاني للسلطة، واستثماره لها في تصفية خصمه السماوي. والحال أن المصادر التاريخية وإن تضاربت حول هذا الدور، من حيث إن بعضهم ينفيه أو على الأقل لا يشير إليه، وبعضهم يؤكده، فإن الملاحظ أن الذين أكدوه هم أولئك الذين كانوا على خصومة فكرية واضحة مع الشوكاني، إما لدوافع شخصية تنافسية كما هو الحال عند العمراني في إتحافه، أو لدوافع مذهبية مثل الضحياني في جواهره، والجنداري في جامعه، بوصفهما من علماء المدرسة الزيدية الهادوية، اللذين يُعد كلاهما امتدادًا تاريخيًّا وفكريًّا للسماوي نفسه. فالركون إلى أخبار هذه المصادر المتعلقة بالشوكاني في هذه المسألة ليس سوى ضربًا من ضروب المغامرة العلمية.

وللتدليل على ذلك فإننا حين نستحضر عبارات العمراني في إتحافه عن الشوكاني سنلحظ أنها لم تكن موضوعية بتاتًا، بل كانت متحيزة وفجة وجارحة.[١٤٧] أما الضحياني، فإن مطالعة ترجمته للشوكاني يمكن أن تعطي فكرة عن مدى موقفه المتحيز ضده، فرغم إشارته إلى رسوخه في العلم، إلا أنه وصفه وصفًا ذميمًا إذ قال عنه: "وكان صاحب زهو، ومساجلة، وانحراف عن آل رسول الله وعلومهم، زائغ عن القصد في حقهم، محاربًا بقلمه لشيعتهم"[١٤٨]. وهذا الوصف لم يكن صحيحًا في حق الشوكاني، إذ ما كان منحرفًا عن آل رسول الله، ولا زائغًا عن حقهم، ويمكن التدليل على ذلك بترجماته العطرة عن أئمة الزيدية وعلمائها في "البدر الطالع"، فضلاً عن كتبه الأخرى[١٤٩]. غير أن نعت الضحياني له بهذا الوصف إنما جاء لكون الشوكاني مجتهدًا، مرتهنًا للدليل، ومخالفًا في العديد من المسائل الفقهية للزيدية. أما صنوه الجنداري فرغم أن كتابه "الجامع" يُعد كتابًا متخصصًا في التراجم، إذ كان منهجه أن يذكر في كل سنة من مات بها من العلماء، مترجماً لهم بتراجم متفاوتة بين الاقتضاب والإسهاب، إلا أن الشوكاني حين مات في عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٥م لم يحظ بترجمة لديه، إذ تغافل الجنداري عنه وتجاهله، فلم يذكره إلا في سياق ذمّه واتهامه بأنه وراء مقتل السماوي. والمفارقة هنا، والتي تشي بافتقاره للموضوعية والإنصاف، أنه في الوقت الذي تغافل فيه الجنداري عن الشوكاني الذي فاق أقرانه، والذي طبقت شهرته الآفاق، نجده يترجم لعلماء أقل شأنًا منه علمًا، وتعليمًا، وتأليفًا.

بعد كل هذا الشواهد التي هي بمثابة الأدلة الدامغة على تحيز هؤلاء المؤرخين ضد الشوكاني، ألا يعد الركون إلى رواياتهم، وما ورد في مصادرهم بشأن دوره التحريضي في مقتل السماوي، مجانبًا للعلمية والموضوعية؟! وألا يعتبر أخذ هذه الروايات بما فيها حول هذه القضية ضرباً من ضروب المغامرة والمجازفة، وأخذ العلم من غير مظانه الصحيحة؟!

ومع كون هذه المصادر تبدو متحيزة في هذه القضية الشائكة، فإن مقاربات المراجع والدراسات الحديثة عنها ما كانت بأفضل حالٍ منها، عطفًا عن كونها افتقرت إلى تعميق النظر في هذه القضية، بوصفها كانت خالية من تمحيص الروايات المعنية بها. فالعمري في دراسته عن الشوكاني حين تناولها اكتفى بالإشارة إلى أن مقتل السماوي مرده فتواه ضد الإمام المهدي، واتهامه بالزندقة، دون أن يرجّح أيًّا منهما[١٥٠]، علاوة على أنه ختم حديثه عن هذه القضية بتبرئة ساحة الشوكاني من مقتله، مؤكدًا أنه نصّ في وصيته على أنه "يسامح

ويصفح عن كل إنسان نال من حقه، أو افترى عليه، إلا من يزعم أن له دخلاً، أو يداً في نكبة وقتل الشيخ محمد بن صالح السماوي"[١٥١]. وعلى غرار سابقه لم يسترسل أحد دارسي تراث الشوكاني في نقاشها، بالرغم من تعرضه لها، مُقررًا أن ردّ السماوي على الشوكاني، ومعارضته الكبيرة له، كانت السبب في أن يدفع حياته ثمنًا لها، معتبرًا أن أصابع الاتهام تتجه إلى الشوكاني، مضيفاً أن مما سرّع في قتله هو فتواه المشهورة بشأن حادثة المخا.[١٥٢] ومن هنا فإن هذا الباحث حاول أن يجمع بين الأسباب دون أن يرجّح أيًّا منها، مكتفيًا بالنظر في مآلات مقتل السماوي من حيث كونها مآلات خطيرة أدّت إلى محاولات إسقاط النظام الإمامي في اليمن[١٥٣].

في السياق ذاته ثمة باحث آخر ممن اشتغل بترجمة أعلام الفكر الزيدي تناول هذه القضية ضمن ترجمته للسماوي. فبعد أن ساق الخلاف الدائر بينه وبين الشوكاني قال ما لفظه: "فكاد الشوكاني وأصحابه للمترجم عند المهدي عبدالله، وكانت المأساة"[١٥٤]. وهنا يتضح إدانة كاملة للشوكاني، واعتباره السبب الرئيس في مقتل السماوي. ليس هذا فحسب بل إن هذا الباحث يذهب إلى أن كل من عارض الشوكاني انتهى به المطاف منكوبًا، إذ يقرر في ترجمته لإسماعيل النعمي، وعند تناوله لثورة العامة عام ١٢١٦هـ/١٨٠١م، وما ترتب عليها من سجن النعمي، أن "المترجم واحد من ضحايا قاضي القضاة الذين اختلفوا معه فكريًّا، فكان مصيرهم السجن والتعذيب والتعزير والنفي والتشريد والقتل"[١٥٥].

وهكذا، يبدو جلياً أن هذا الباحث يتهم الشوكاني صراحة بتصفية خصومه، واستثمار السلطة في الوقيعة بهم. غير أن هذا الاتهام لا يمكن التسليم به، ذلك أن هذا الباحث ومن خلال النظر إلى قراءته التاريخية الكلية بحق الشوكاني، يبدو منحازًا دائمًا ضده، وكتابته تفتقرُ إلى الموضوعية وتخلو من الإنصاف. ما يبرهن على ذلك أنه في العديد من ترجماته كان يلمز الشوكاني، ويتعرض له بالنقد. فحين ترجم له عزا كثرة مؤلفاته إلى أنها "لم تكن بجهده، بل كان يكلف تلامذته، وطلبته بإعدادها، وبمّدهم بالمال"[١٥٦]. كما أنه حين نقل ثناء الشوكاني على تلميذه الشجني وكتابه الذي ألّفه في رصد سيرته، قال متهكّماً وناقداً للاثنين معاً: "يتبادلان الإطراء بينهما، التلميذ يترجم لشيخه، وشيخه يكافئه بعدة مناصب قضائية، ويمدحه، ويطريه"[١٥٧]. والإشكال هنا أن أداة هذا الباحث النقدية في كتابته التاريخية كانت انتقائية، إذ كانت حادة وصارمة على الشوكاني، ومن يمتّ له

بصلة، في حين أنها كانت متوارية، أو بالأحرى لا وجود لها، حينما كانت كتابته عن خصومه ومعارضيه، ما يجعل الموضوعية التي هي الشرط الأهم في كتابته التاريخية تنتفي، وتستحيل إلى كتابة رغبوية، فيها الكثير من الإجحاف والتجني[١٥٨].

وبصرف النظر عن كل ذلك، فإن ما يدحض اتهام الشوكاني بتصفية خصومه من المختلفين معه فكرياً، أن يحيى الحوثي، رغم كونه ممن ألهب ثورة العامة عام ١٢١٦هـ/١٨٠١م، وبعد أن خرج من السجن، ونظراً إلى أوضاعه المادية السيئة، احتواه الشوكاني في حلقته العلمية بالجامع الكبير، وجعله يتقاضى أجور تحرير الأوراق في تلكم الحلقة[١٥٩]. وبالعودة إلى السماوي، فإن ما يؤكد أن مقتله كان لسبب سياسي قبل أي سبب آخر، وأنه متعلق بفتواه التي تضمنت نقدًا للإمام المهدي، أو متعلق –بصورة أوسع– بمعارضته السياسية للإمام المهدي، هو استنطاق بعض أبياته الشعرية التي تثبت معارضته لحكم الدولة القاسمية، اعتقاداً بفساد أئمتها، والتي جاء في بعضها قوله:

بني قاسم بن الحسين سقاكم ... إله السماء كأس المذلة والفقر
أطأتم كتاب الله والسنة التي ... عليها مضت آباؤكم دائم الدهر[١٦٠]

حتى يقول:

فكم بدعة قامت على صدر مُلككم ... وكم سنة ماتت على دمعة تجري

ثم يقول محرضًا عليها:

فهل ناصر للدين من آل هاشم ... بعزم وعلم يعضد الدين بالنصر
فيسفك من هذي الرؤوس دماءها ... ويوجعهم ضرباً على البطن والظهر[١٦١]

ويلحظ هنا أن ابن حريوة السماوي يبتهل ويدعو الله أن يصيب الأئمة القاسميين بالذل والفقر، لكونهم في رأيه تخلوا عن الكتاب والسنة، ولأن فترة حكمهم شهدت إماتة السنن وإحياء البدع، ثم يبادر السماوي بحكم زيديته إلى دعوة آل البيت، محرضًا إياهم على الثورة ضد هؤلاء الأئمة غير الشرعيين في نظره.

من الواضح إذن، أن إعدام السماوي ليس لخصومته مع الشوكاني، بقدر ما كانت مرتبطة بمعارضته السياسية لحكم الإمام المهدي. ولعل ما يؤكد براءة الشوكاني من مقتله ما ذكرته بعض المراجع على لسانه حين قال: "إنه يعفو عن كل من ظلمه إلا من اتهمه بأنه وراء مقتل السماوي". على أن هذا القول رغم أهميته لم يكن شافعًا للشوكاني عند

الدارسين المحدثين المتعاطفين مع السماوي، إذ يتساءل أحدهم مستنكرًا، وبما يشبه الإدانة للشوكاني، بقوله: "ألم يكن الشوكاني في وسعه منع قتل السماوي خاصة مع استحضار مكانته العالية في نفس الإمام المهدي؟!". والحال أن الشوكاني ربما كان قادرًا على درء إعدام السماوي، غير أن ما فات هؤلاء الدارسين أن الشوكاني ما كان ليتشفع في مقتله، وهو الذي ملأ كتابه "الغطمطم" شتمًا وسبابًا وتجريحًا في حقه، إذ كان يخاطبه بكبير الغواة[١٦٢]، والمهين[١٦٣]، والناصبي الخبيث[١٦٤]، والسفيه[١٦٥]، والمهين الذميم[١٦٦]، والبليد[١٦٧]، والملحد[١٦٨]، والحقير[١٦٩]. كما وصفه بالجهل المركب[١٧٠]، والحمق[١٧١]، وأنه من أجهل الناس.[١٧٢] وكل هذه الشتائم والألفاظ الجارحة لم نرصد منها إلا ما وجدناه في الصفحات الثلاثين الأولى من مخطوطه البالغ ستمائة وستين صفحة، وهو ما يؤشر على كثافتها، وامتلاء كتابه بها، وفي ذات الوقت يجعل من المتعذر حصرها.

وهكذا، فمن المرجح أن هذا السباب والشتم كوّنا عائقًا ومانعًا للشوكاني من أن يتعاطف مع غريمه السماوي، بحيث كان موقفه على قول القائل: "لم آمر بها، ولم تسؤني". إذ لم يكن سهلاً على نفسه –وهو في النهاية بشر يعتريه ما يعتري البشر– أن ينافح عن الرجل الذي أساء إليه وشتمه، وأكثر من الوقيعة فيه والنيل منه. ولعل ما يبرهن على أن الشوكاني لم يكن يستهدف إيذاء المختلفين معه فكرياً، أو التضييق عليهم، يكمن في استحضار عطفه على يحيى الحوثي الذي خرَجَت ثورة العامة من تحت عباءته، حين بادر إلى احتوائه بعد خروجه من السجن ضمن حلقته العلمية، وأذن له بأن يعتاش من تحرير الورق في تلكم الحلقة.[١٧٣]

المبحث الثالث

محنة محمد بن علي العمراني

هو محمد بن علي بن حسين العمراني، محدث، وفقيه، وُلد بصنعاء عام ١١٩٤هـ/١٧٨٠م، وتلقى العلم عن ثُلة من علمائها، كان أبرزهم السيد الحسن بن يحيى الكبسي[١٧٤]، ومحمد بن علي الشوكاني وغيرهما[١٧٥]. برع في العلوم الشرعية والعربية، وبات من كبار علماء اليمن في وقته. ترجمت له جُملة من المصادر التاريخية، وأثنى عليه ثُلّة من المؤرخين؛ فتلميذه عاكش وصفه بقوله: "شيخنا العلامة، خاتمة أهل التحقيق، والفائق لأقرانه في أصناف التدقيق"[١٧٦]. ووصفه الشجني في ترجمته له بأنه: "الفقيه العلامة المجتهد، والنبيه الفهامة المنفرد، حافظ الآثار، ومسند الأخبار"[١٧٧]. ونعته زبارة بقوله: "القاضي، الحافظ، الضابط، الناقد، المحدث الكبير"[١٧٨]. والحال أن هذه الأوصاف التي وُصف بها العمراني ما كان ليتم إطلاقها على هذا النحو لولا رسوخه في العلم، خاصة علم الحديث الذي مهر فيه، وبزّ أقرانه وفاقهم دراية به. يقول عاكش في هذا السياق: "وأما علم الحديث فهو إمام محرابه، والذي لا يلزّ به قرين من أهل زمنه وأترابه، فهو يستحضر رجال الكتب الستة بحيث لا يخفى عليه من أحوالهم خافية تعديلاً وتجريحاً، مع همّة عالية للاطلاع على العلل المتناهية".[١٧٩] وقال الشجني مؤيدًا لعاكش: "وبرع في كل المعارف، وخرج فيها سابقًا، لا سيما في علوم الحديث ورجاله، فإنه فُتح عليه، وصار المشار إليه في معرفة الرجال، وأسمائهم وكناهم، واختلاف طبقاتهم ومراتبهم، وثقاتهم وضعفائهم، وعمن أخذوا، ومن أُخذ عنهم، وكذلك في خفيات علل الحديث ودقائقه"[١٨٠].

لقد كان العمراني ملازمًا للشوكاني حتى عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م، إذ يبدو أن العلاقة بين الرجلين كانت وطيدة للغاية. ما يؤكد ذلك أن عاكش الضمدي حين ارتاد حلقة الشوكاني في صنعاء، استنتج من خلال مشاهدته أن الشوكاني لم يكن يحتفي بطالب من طلاب حلقته مثل احتفائه بالعمراني، وتعويله عليه من الناحية العلمية؛ حيث قال عاكش: "ولم أره يلاحظ أحدًا من أهل حلقته ملاحظته، وما تدور مراجعة إلا ويسند بيان إشكالها، وإيضاح إبهامها عليه"[١٨١]. بل إن الشوكاني نفسه ترجم له ترجمة وافية، حافلة بالثناء والمديح، حيث وصفه بأنه: "قوي الذهن، سريع الفهم، جيد الإدراك، ثاقب النظر، ويقل

وجود نظيره في هذا العصر مع تواضع وإعراض عن الدنيا"[١٨٢]. على أن هذه العلاقة بين الرجلين وإن بدت تتسم بالقوة والمتانة[١٨٣]، إلا أنها لم تستمر على هذا النحو. إذ ذكر عاكش الضمدي أن الوحشة دبّت بينهما من دون أن يعطي سببًا واضحًا لها، حيث قال في هذا السياق: "وفي آخر المدة وقع منه وحشة من شيخنا البدر الشوكاني، كما جرت به العادة بين الأقران"[١٨٤]. وبعد هذا التدهور الكبير في العلاقة بين الرجلين، أوردت ثُلة من المصادر اليمنية تعرّض العمراني لمحنة كبيرة من الإمام المهدي عبدالله، حيث اعتُقِلَ وكاد أن يُقتل، غير أنه أُفرج عنه، وكان ذلك في عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م.

ولئن اتفقت هذه المصادر، وتواترت على خبر محنة العمراني، فإنها اختلفت اختلافًا بينًا حول الأسباب المتعلقة بها، ويمكن عرض ذلك في النقاط التالية:

- يُفهم من سرد عاكش الضمدي عن هذه المسألة أن محنة العمراني جاءت تاليةً على الوحشة الحاصلة بينه وبين الشوكاني حيث قال: "وبعد حصول الوحشة بينه وبين شيخه المذكور تناقص الحال، وانتهى ذلك إلى خروجه من صنعاء لأسباب صدرت عليه من القائم بصنعاء تلك المدة، وهو عبدالله بن أحمد الملقب المهدي"[١٨٥]. ورغم أن عاكشًا لم يُبيّن العلاقة بين الوحشة والمحنة، ولم يستفض في شرحهما من حيث كون الأولى سببًا مباشرًا للأخرى، إلا أن أحد الباحثين اليمنيين حين استقرأ هذا النص خلص إلى أن محنة العمراني كان سببها المباشر هو الخلاف مع الشوكاني، إذ يقول في هذا السياق: "وهكذا، ما إن يخالف الشوكاني قاضي القضاة، والمستشار المؤتمن للمهدي عبدالله، الإمام الجائر، حتى تعرض للمخالف محنة فيودع دار الأدب، ويكاد يُعرض على السيف، أو يلقى مصير السماوي، لكن المترجم محظوظ إذا يُفرّج عنه، ويزعج عن وطنه"[١٨٦].
- تذكر إحدى الدراسات أن العمراني كان قائمًا بوظيفة الإشراف على بعض الإقطاعات التي يملكها الشوكاني، ثم إن الشوكاني رأى أن يسلّمها إلى أحد أبنائه الذي بلغ سن الرشد، وعلى إثر ذلك تفجّر خلاف بين الرجلين أدى إلى سجن العمراني، حتى أوشك أن يُعاقب بالإعدام[١٨٧].
- يشير صاحب نشر الثناء الحسن إلى أن سبب هذه المحنة هو صدور فتوى من العمراني، من دون أن يتناول مضمونها ولا موضوعها، غير أنها على ما يبدو كانت مخالفة لسياسة

الإمام المهدي في اليمن، وهو ما جعل هذا الإمام –وبحسب المصدر السابق– يكاد يفتك به. ونتيجة لذلك فقد خرج العمراني من صنعاء، بعد أن نُهبت خزانة كتبه، وسائر ما في بيته من الأثاث والمتاع[١٨٨].

- تذكر بعض المصادر اليمنية سببًا آخر، يختلف عن السبب السابق، حيث يرجع سبب هذه المحنة إلى تعرض العمراني لوشاية من بعض الحساد بسبب مكانته العلمية الكبيرة[١٨٩].

والحال أننا حين نستعرض الأسباب السابقة فإننا نلاحظ أن السببين الأوليين يربطان بصورة مباشرة بين محنة العمراني وبين خلافه مع الشوكاني[١٩٠]، أي أن محنة العمراني كانت محايثةً للخلاف مع الشوكاني، في حين أن السببين الأخيرين لم يرد فيهما أي إشارة تدل على دور الشوكاني فيها. غير أن ما يمكن أن يفيدنا في هذه المسألة هو ما كتبه العمراني نفسه في مؤلفه الموسوم بـ "إتحاف النبيه بتاريخ القاسم وبنيه"، فبالرغم من أن هذا الكتاب –كما هو واضح من عنوانه– يؤرخ للدولة القاسمية في اليمن، ويعطي نبذاً عن أخبار أئمتها، إلا أنه تحدث كثيرًا عن محنته، وعن علاقته بالشوكاني، حيث ذكر أنه درس على يديه حتى أواخر عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م، مشيرًا إلى أنه استفاد منه، حيث قال: "فاستفدت ما لا أكذب الله ولا أجحد"[١٩١]. على أن العمراني وإن أقرّ بذلك إقرارًا مشوبًا بالحياء والاقتضاب، إلا أنه أشار في مواضع عديدة من كتابه إلى أن الشوكاني، الذي درج العمراني على تسميته بلعام[١٩٢] كان ضالعًا في محنته، حيث قال: "وقد تسبب بلعام لدخولي السجن، وتلذذ بما نالني من مفارقة الأهل، والمال، والابن"[١٩٣]. يُضاف إلى ذلك أنه في موضع آخر ذكر أن من تولى سجنه هو الوزير قاسم العفاري، الذي طالبه بتسديد مبلغ من الأموال التي زعم أنه ملتزم بها، غير أن العمراني أجابه بقوله: "فأجبت ما بذمتي لأحد دين، ولا عنده زكاة في مالي ولا عقاري، ولا أنا ممن يجري عليه أحكامهم المنكوسة على من هو في منهج الخذلان جاري"[١٩٤]. ثم يلمز العمراني الشوكاني بما يؤشر على ضلوعه في هذا الأمر فيقول: "وما وقع هذا الأمر ... إلا وقد شاع من عند ذلك القاضي الفاجر"[١٩٥]. وحين يقدم العمراني تفسيرًا لفعل الشوكاني، ولضلوعه في محنته، فإنه يشير إلى أن مرده الحسد له، والغيرة منه حيث قال: "وذلك مما توقد نار الحسد بقلبه فيما عليّ من ضافي نعمة الباري المصور، وصافي فضله، وما بيدي لا يوازي عشر معشار ما بيده وعند أهله"[١٩٦].

وبنظرة عامة في هذه العبارات، فضلاً عن غيرها من نصوص كتاب "إتحاف النبيه"، يتضح مدى العداء الشديد المستحكم بين العمراني والشوكاني، أو بعبارة أدق مدى الحنق الشديد والغيظ الكبير الذي يحمله العمراني على شيخه، ذلك أن هذه العبارات وغيرها من النصوص المبثوثة في هذا الكتاب لا يمكن وصفها على أقل تقدير سوى أنها عبارات موتورة وغاضبة، تتسم بالإدانة والتشنيع والتجريح، وتفيض بالعداء الشديد، علاوة على أنها لم تكن محصورة في نقد الشوكاني من خلال رصد أدواره المتعلقة بمحنة العمراني، بل تعدت ذلك إلى أن باتت تروم الانتقاص من الشوكاني في كل أدواره، ومناحي حياته العلمية، وحتى الشخصية.

لقد كان قضاء الشوكاني وعلمه وتدينه وأمواله، وحتى موته، موضوعات تناولها العمراني نقدًا وتجريحًا، وثلبًا وتوبيخًا، وحتى لا يكون ما ذكرناه مرميًّا على عواهنه، يمكن أن نبرهن على ذلك بما تناوله العمراني عن النظام القضائي في اليمن، حين كان الشوكاني يملك المنصب القضائي الأعلى فيه، إذ اتهمه وأعوانه بالفساد؛ فقال: "ثم جعل القاضي حاصل مجلس قضاه أن يحضر الخصوم بين يديه على ترتيب ارتضاه، وعرفوا أعوانه أنه التساهل ... يقدمون من قدمه المال، ويؤخرون من لم يبذل لهم ما راموه"[١٩٧]، ويضيف أن الفقير المعدم قد يقعد ببابه عدة أشهر وأيام بعكس الغني الذي يتكرر دخوله عليه[١٩٨].

وكما انتقص العمراني من تدبير الشوكاني وعمله في القضاء[١٩٩]، فإنه انتقص من علمه أيضًا. فحين تناول تأليفه لكتاب "السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار"، قال عنه ما لفظه: "أبدى القاضي ما لم يستطع إظهاره، ودرس في كتاب علقه على الأزهار، أكثر فيه عثاره، فما أبدى مكنونه، ولا أدى مخزونه، ولا أوضح له عبارة"[٢٠٠]. ولا ريب أن العمراني، وإن بدا أنه ينتقص من أحد مؤلفات الشوكاني، فإن مغزاه من ذلك هو ثلب الشوكاني علميًّا، والتقليل من علمه بوجه عام. ولعل ما يؤكد هذا الاستنتاج ما ذهب إليه أحد الدارسين حين لاحظ أن العمراني في إتحافه كان يستكثر على الشوكاني أن يعد نفسه "مجتهدًا مطلقًا"[٢٠١]. على أن ما ينبغي تأكيده هنا أن هذا الانتقاص ما كان قط مؤثرًا في صورة الشوكاني، وما كان ليهزّ من مكانته العلمية، لا سيما عند استحضار سيرته التي لا تكاد تضاهيها سيرة أحد من أقرانه، أو من بني عصره سواءً كان ذلك علمًا، أو تعليمًا، أو حتى تأليفًا وتصنيفًا[٢٠٢].

وفيما يتعلق بتدين الشوكاني، فإن العمراني ذمه كثيرًا، إذ يفهم من عباراته أن تدينه كان ركيكاً، وأنه لم يكن مخلصًا في أداء واجباته الدينية، ففي سياق حديثه عن صلاة الجماعة كتب العمراني عنه إنه "لا يحضر جماعة في مسجد من حين علق بالوظيفة"[٢٠٣]، والوظيفة هنا هي وظيفة قاضي القضاة. وبخصوص قراءة القرآن والصوم، فإن العمراني يقول عنه: "لا يحسن من قراءة المتلو، ويستثقل الصوم، ويتبرم لوفود شهر رمضان"[٢٠٤]، "وأما الحج فما فعله ولا خطر على باله، وكثيرًا ما كنت أرغبه فيأتي بعذر من لا يلتفت إلى نصيح بما ينفع في ماله"[٢٠٥]. ولم يتوقف العمراني عند ثلب تدين الشوكاني فحسب، بل أكمل طريقه في النيل منه عندما تطرق لأمواله، حيث ذكر أن ثراءه مرده عدم تورعه عن حيازة الأموال بأي كيفية كانت، وأنه "توثب على الوقوف، والمكوس، والزكاة"[٢٠٦]. ويكمل العمراني طعنه في الشوكاني إلى حد الشماتة به عند موته، والدعاء عليه، إذ يقول عنه: "فهو إن شاء الله، العالم الذي يجرّ في النار قصبه"[٢٠٧].

وبسبب ما تعرّض له العمراني من تنكيل وأذى كبيرين، فقد كان لكليهما وقع شديد عليه من الناحية النفسية، بحيث صاغت هذه المحنة، وما انطوت عليه من تنكيل وإهانة وأذى، نفسيته وجعلتها نفسية غاضبة موتورة وحانقة، لا تتطلع إلا للثأر من أولئك الضالعين فيها، الأمر الذي يمكن أن يكون مفسراً لعباراته الجارحة، ولغته القاسية في حق شيخه الشوكاني. ولعل ما يدعم ذلك ويؤيده، وصفه لأحواله الرديئة، وصنوف تعذيبه، وإهانته البالغة في السجن. إذ أشار إلى تقييده بأغلال ثقيلة، وأنه لم يكن يستطيع المشي بها، بل إنه لم يكن يذهب إلى مكان قضاء الحاجة إلا محمولاً[٢٠٨]. إضافة إلى أنه ذكر مكان اعتقاله فقال عنه بأنه: "محل مظلم، فيه أشياء قذرة"[٢٠٩]، عطفًا على أنه مُنع "من الزاد والماء والصلاة"[٢١٠]. ثم يقول العمراني بعد هذا الوصف في إشارة واضحة إلى الأثر النفسي الكبير الذي خلفه سجنه: "فهل يكون الكفر إلا هكذا ؟!"[٢١١]، متمثلاً بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[٢١٢]. ولم تنته محنة العمراني عند هذا الحد، ذلك أنه بعد خروجه من السجن ذكر أنه أُكره على بيع داره، كما ذكر أن معتقليه قد أخذوا ما في داره من مال، وأخذوا كتبه، مثل: "فتح الباري"، و"الكشاف"، و"سنن أبي داود"، و"سيرة ابن هشام"، و"صحيح مسلم"، و"المستدرك"[٢١٣]. كما صودر ما في الدار من أمتعة

ومقتنيات؛ فيقول بأنه أُخذ: "جيد ما عندنا من الملبوس والفراش، وآنية النحاس، وما يعالج به إصلاح المعاش"[٢١٤].

ولئن يكن العمراني يتهم الشوكاني بأنه سبب رئيس من أسباب محنته، موغلاً في شتمه والتشنيع عليه، متوسلاً بلغة جارحة وقاسية، تصوّره في صورة مليئة بالقبح والسوء، تعاكسُ صورته الجليلة والبهية في مخيال المسلمين، وتستنزلها من علوّها السامق المُكرّس لها في المصادر التاريخية، فإن هذا يجعلنا نتوقف لنتساءل هل الشوكاني كان بالفعل وراء محنة العمراني ؟! ثم هل كانت محنته العامل الأوحد في استخدامه لنمطٍ عنيف من الكتابة في حق شيخه الشوكاني أم أن ثمة عوامل أخرى خفية دفعته إليه؟! وما مدى مصداقيته في كل ما كتبه؟!

والحال أن ما نرجّحه هو أن الشوكاني ربما يكون -بحكم موقعه القضائي- وراء اعتقال العمراني وسجنه، أو على أقل تقدير كان على علمٍ بسجنه، لكن من المؤكد أن الشوكاني لم يكن ليصمت عن اعتقال تلميذه لو لم يكن مؤمنًا بإدانته، وأن ثمة أموالاً كان يتعين عليه تسديدها. وهذا لا يعني إدانة العمراني، والقطع بما عليه من حقوق مالية، بقدر ما أن هذا القول هو محاولة لتفسير موقف الشوكاني. وإذا كان العمراني ينكر ما عليه من التزامات مالية، ويؤكد أن سجنه ما كان دافعه سوى حسد الشوكاني له، فإن ما يدحض هذا الدافع، ويجعله مستبعداً بالمرة، أن الشوكاني لو كان يحسده لما ترجم له في "البدر الطالع" ترجمة عاطرةً مجيدة، مليئة بالثناء والمديح[٢١٥]. بل لا نبالغ إن قلنا إن الأمر ليبدو معكوسًا، فعاكش الضمدي، وهو تلميذ الرجلين، والأدرى بهما وبخلافهما، حين ناقش هذه المسألة، فإن سياق تناوله لها يوحي بأن ثمة حسدًا ثاويًا، وغيرة مضمرة، وتنافسًا محمومًا في نفس العمراني تجاه شيخه[٢١٦]. علاوة على أن عاكشًا في هذه المسألة اصطف بكل وضوح إلى جانب الشوكاني، حيث رأى أن وقيعة العمراني فيه لم تكن مقبولة، إذ قال: "ويكون الجواب على كلامه في شيخنا البدر ما قاله الإمام السبكي في ترجمة الإمام الشافعي؛ حيث أورد كلام أبي داود فيه: ما ضر أبو داود إلا نفسه بكلامه على الشافعي، لأن الماء إذا بلغ قلتين لا يحمل الخبث"[٢١٧]. وهنا يتضح أن عاكشًا يبرّئ ساحة شيخه

الشوكاني، وفي الوقت عينه يدين شيخه الآخر العمراني، مُشددًا على أن غرضه من هذا الموقف هو "إجراء ميزان العدل بينهم"[٢١٨]، ومؤكدًا أن الشوكاني كان "طاهر اللسان في حقه، ويرى له من التعظيم فوق ما يرى لغيره ممن عرفنا"[٢١٩].

لقد أودت هذه الحادثة بالعمراني إلى أنه لم يعد يستمرئ المقام في صنعاء، ولم يعد يطيق العيش فيها، مما جعله يغادرها ويرتحل إلى مدينة زبيد في عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م[٢٢٠]. ووفقًا لعاكش فإنه "لم يطب له بعد ذلك المقام بزبيد، وهاجر إلى مكة المشرفة، وأقام بها ثلاث سنين على حال يسرّ الودود، ويسوء الحسود، مكباً على نشر العلم في تلك البقاع الكريمة"[٢٢١].

وإذا كانت إقامة العمراني في مكة ناجمة عن محنته من السلطة في اليمن، فإن مغادرته لها -أي مكة- ناجمة عن حظوته من لدن السلطة في المخلاف السليماني، ذلك أن أمير هذه المنطقة الشريف الحسين بن علي بن حيدر[٢٢٢] ما إن علم بمُقام العمراني في مكة، حتى بعث إليه برسالة يطلب منه الارتحال والإقامة لديه في المخلاف السليماني. وهكذا فقد ارتحل العمراني من مكة، حيث أقام في (أبو عريش) عند الشريف الحسين "وأجرى عليه الكفاية التامة، ولحظه بعين الإجلال الخاصة والعامة" [٢٢٣]. ووفقاً لعاكش فقد بقي العمراني في (أبو عريش) حوالي سنتين، ثم انتقل بعد ذلك إلى زبيد، حيث قال: "ثم ترجّح له الارتحال إلى مدينة زبيد، وكان إذ ذاك بها الشريف المذكور، فأسدى إليه الإنعام، وقابله بالإجلال والإكرام" [٢٢٤] . وقد أقام العمراني بقية حياته بزبيد حتى قُتل فيها عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م[٢٢٥]، أي أن وفاته كانت بعد وفاة شيخه الشوكاني بحوالي أربعة عشر عامًا. وكانت وفاة الشوكاني متقدمة على وفاة الإمام المهدي[٢٢٦] بعام واحد تقريبًا، إذ كانت وفاة الأول في جمادى الأخرى عام ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م[٢٢٧]. ورغم ذلك فإن العمراني لم يعد مطلقًا إلى صنعاء، رغم حبه الشديد لها.

ما يمكن أن نخلص إليه مما سبق، أن الشوكاني حتى وإن كان له دور مباشر في محنة العمراني، وما أفضت إليه من ارتحاله من صنعاء، إلا أن مقاربة أحد الباحثين التي تشير إلى أن الشوكاني قد استغل السلطة، واستثمرها للنيل من العمراني لأسباب فكرية بحتة[٢٢٨]، هي مقاربة غير دقيقة، وفي الوقت عينه غير نزيهة. ونشدّد هنا على "غير نزيهة" لأن

مراده ما كان الوصول إلى الحقيقة التاريخية، وإنما مراده تقديم الشوكاني في صورة تبخيسية وباهتة، عبر محاولة إظهاره بأنه رجل يضيق ذرعاً بالاختلاف، وأنه مشغول بحياكة الدسائس لخصومه الفكريين. ما يجعلنا نتبنى هذا الرأي أن المتبني لهذه المقاربة ينطلق من خلفية مذهبية واضحة، إذ كان نقده يفتقر إلى الموضوعية، ويتسم بالانتقائية، بوصفه نقدًا كان يستهدف بعض العلماء -مثل الشوكاني- دون غيره من العلماءٍ الآخرين، فبقدر ما قدّم هذا الباحث صورة باهتة وذابلة للشوكاني عند تناوله له، بقدر ما قدّم صورة تمجيدية باذخة لخصومه مثل العلامة إسماعيل بن عز الدين النعمي، والعلامة محمد بن صالح السماوي[٢٢٩].

الخاتمة:

لقد حاولت هذه الدراسة أن تبحث في موضوع أثر الشوكاني في موقف الأئمة اليمنيين من العلماء المعارضين له، وأن تنظر بعناية شديدة إلى ما أشيع عن الشوكاني في بعض المصادر اليمنية من أنه كان سبباً وراء محن بعض العلماء الذين خالفوه. والعمل في مثل هذه الدراسة بمثابة عمل المحقق الذي يسعى إلى كشف جريمة ما، ومعرفة دوافعها، وأسرار ضحاياها. إن إسماعيل بن عز الدين النعمي، ومحمد بن صالح السماوي ، ومحمد بن علي العمراني، كل هؤلاء العلماء وقعوا ضحايا لعنف السلطة القاسمية في اليمن، فالأول حبسته في سجن زيلع حتى مات عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م، والثاني أعدمته وصلَبته عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥م، أما الثالث فسجنته وصادرت أمواله، وألجأته إلى الخروج من صنعاء حتى مات مقتولاً غريبًا في زبيد عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م. ولأن بعضًا من المصادر اليمنية أكدت وجود إسهام كبير من الشوكاني في تحريض السلطة على هؤلاء العلماء، فقد حاولنا تمحيص دور الشوكاني في هذه القضية، وتسليط الضوء عليها، من خلال تتبع جذور الخلاف الفكري بينه وبينهم، ثم بحث علاقته بمحن هؤلاء العلماء ونكباتهم.

إن غرض هذه الدراسة ليس تبرئة الشوكاني أو الانتصار له، ولا حتى إدانته أو إلقاء المسؤولية عليه، وإنما غرضها تقديم مقاربة تاريخية تشرح ملابسات ما جرى لهؤلاء العلماء، وتحلل موقع الشوكاني إزاء النكبات التي حلّت بخصومه، والخلاصة أن هذه الدراسة أفضت إلى عددٍ من النتائج، أهمها:

أولاً: أثبتت الدراسة أن الخلاف الفكري بين إسماعيل بن عز الدين النعمي والشوكاني بدأت شرارته الأولى عند تأليف هذا الأخير كتاب "إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي"، حيث أسهم هذا الكتاب في تأليب عددٍ من علماء الزيدية الهادوية ضد الشوكاني، كان من أبرزهم النعمي، الذي ألّف كتابًا في الرد على الشوكاني سماه "السيف الباتر المضيء لكشف الإيهام والتمويه في إرشاد الغبي". وإذا كان النعمي قد وقع ضحية عنف السلطة فإن ما يثبت براءة الشوكاني، وينفي ضلوعه في محنة خصمه، أن كتاب النعمي الذي ألّفه في الرد عليه لم يكن متزامنًا مع محنته، وإنما كانت -طبقًا للمصادر- متزامنة مع تأجيجه لثورة العامة ضد سلطة الإمام المنصور عام ١٢١٦هـ/١٨٠١م، وهو ما أدّى إلى سجن المشاركين في تلك الثورة، والمحرضين عليها

بمن فيهم النعمي. هذا الفعل وإن جاء بمباركة الشوكاني، وبناءً على مشورته للإمام المنصور، إلا أن دافعه في ذلك –في تقديرنا– ليس تصفية خصمه النعمي أو القضاء عليه، وإنما ضبط الأمن وإنهاء الفتنة، باعتبار أن الشوكاني رأى أن تلكم الثورة كانت خطيرة للغاية، وكانت فساداً عريضاً لا يمكن السكوت عنه، أو التهاون فيه.

ثانياً: فصّلت الدراسة في الخصومة الفكرية الشديدة بين ابن حريوة السماوي والشوكاني، تمثلت شرارتها الأولى حين ألّف الشوكاني كتابه "السيل الجرار"، وأعقبه تأليف السماوي في الرد عليه بكتابه المشهور "الغطمطم الزخار". هذه الخصومة الفكرية الشديدة، وإن ظهر أنها السبب وراء نكبة ابن حريوة، إلا أن الدراسة أكّدت أن دافعها سياسي وليس فكريًّا، تجسد ذلك في معارضته لحكم الإمام المهدي، وهو ما أدّى إلى إعدامه في الحديدة عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥م.

ثالثًا: حاولت الدراسة أن تفسر الروايات الكثيفة المتعلقة بالسماوي، تلكم الروايات التي أخذت بُعدًا ميثيولوجيًّا، مفارقًا للعادة، حيث فسّرتها بما يعتمل في وجدان المجتمع اليمني من حزن وتأثر شديدين، واعتراضٍ مضمر على عنف السلطة تجاه ما اقترفته السلطة تجاه السماوي.

رابعًا: بيّنت الدراسة جذور الخلاف الذي استحكم بين الشوكاني والعمراني، وفصّلت في تناول ملابسات محنة العمراني، موضحة أن الشوكاني بُحكم موقعه القضائي ربما يكون له علاقة بسجن تلميذه، غير أن السبب ليس فكريًّا، وإنما يبدو متعلقًا ببعض الأموال التي لم يلتزم العمراني بسدادها. ولعل ما ينفي أن تكون محنة العمراني مترتبة على خصومة فكرية مع الشوكاني، أن هذا الأخير أفرد له ترجمة عاطرة في "البدر الطالع"، عطفًا على أن العمراني كان التلميذ الأكثر حظوة عند شيخه، الذي أبدى إعجابه الشديد به، وبشخصيته العلمية.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات:

- إجازة الشوكاني للعمراني، صورة منها في مكتبة عبدالعزيز بن سليمان المتحمي، ولدى الباحث نسخة منها.
- الجنداري، أحمد بن عبدالله: الجامع الوجيز في وفيات العلماء أولي التبريز، أصله في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، برقم: ٢٥٢٤، ولدى الباحث نسخة منه.
- السماوي، محمد بن صالح: الغمطم الزخار المطهر لرياض الأزهار من أدران السيل الجرار، صورة منه في مكتبة عبدالعزيز بن سليمان المتحمي، ولدى الباحث نسخة منها.
- الضحياني، عبدالله بن حسن: الجواهر المضيئة في تراجم بعض رجال الزيدية، (مخطوط)، صورة منه في مكتبة عبدالعزيز بن سليمان المتحمي، ولدى الباحث نسخة منها.
- العمراني، محمد بن علي: إتحاف النبيه في خبر افتتاح المنصور وبنيه، (مخطوط)، صورة منه في مكتبة عبدالعزيز بن سليمان المتحمي، ولدى الباحث نسخة منها.
- الكبسي، محمد بن إسماعيل: النفحات المسكية بالأسانيد القوية في الإجازات المتوكلية والسيرة الإمامية المطهرية، صورة منه في مكتبة أحمد يحيى آل فائع، ولدى الباحث نسخة منه.
- المحلي، حميد بن أحمد: الحدائق الوردية في ذكر مناقب أئمة الزيدية، صورة منه في مكتبة عبدالعزيز بن سليمان المتحمي، ولدى الباحث نسخة منها.
- النعمي، إسماعيل بن عز الدين: السيف الباتر المضيء لكشف الإيهام والتمويه في إرشاد الغبي، صورة منه بمكتبة عبدالعزيز بن سليمان المتحمي، ولدى الباحث نسخة منه.

ثانيًا: المصادر والمراجع المطبوعة:

-القرآن الكريم.

-ابن أبي الرجال، أحمد بن صالح: مطلع البدور ومجمع البحور في تراجم رجال الزيدية،

١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

-الشجني، محمد بن حسن: التقصار في جيد زمان علامة الأقاليم والأمصار، حققه وعلق عليه: محمد بن علي الأكوع، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

-الشوكاني، محمد بن علي: أدب الطلب ومنتهى الأرب، تحقيق ودراسة: عبدالله يحيى السريحي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

-الشوكاني، محمد بن علي: إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي، تحقيق: أبي الحسن علي بن أحمد الرازحي، مكتبة الرضوان، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

-الشوكاني، محمد بن علي: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق: محمد حسن حلاق، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

-الشوكاني، محمد بن علي: در السحابة في مناقب القرابة والصحابة، تحقيق ودراسة: حسين بن عبدالله العمري، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

-الشوكاني، محمد بن علي: السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

-عاكش، الضمدي: حدائق الزهر في ذكر الأشياخ أعيان الدهر، تحقيق: إسماعيل بن محمد البشري، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

-عاكش، الضمدي: الديباج الخسرواني في أخبار أعيان المخلاف السليماني، تحقيق: إسماعيل بن محمد البشري، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ.

-العرشي، حسين بن أحمد: بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى اليمن من ملك وإمام، عناية: الأب أنستاس ماري الكرملي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١.

-العمراني، محمد بن إسماعيل: قصص وحكايات من اليمن، أعدها وجمعها وحققها: محمد عبدالرحمن غنيم، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠١٠م.

-العمري، حسين بن عبدالله: الإمام الشوكاني رائد عصره، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

-القاسم، إبراهيم: طبقات الزيدية الكبرى، تحقيق: عبدالسلام بن عباس الوجيه، مؤسسة الإمام زيد الثقافية، عمان، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

-القاسم، يحيى بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق وتقديم: سعيد عبدالفتاح عاشور، مراجعة: محمد مصطفى زيادة، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

-مجهول، حوليات يمانية، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

-هيكل، برنارد، الإصلاح الديني في الإسلام (تراث محمد الشوكاني)، نقله إلى العربية: علي محمد زيد، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.

-الوجيه، عبدالسلام بن عباس: أعلام المؤلفين الزيدية، مؤسسة الإمام زيد الثقافية، عمّان، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

-الوشلي، إسماعيل بن محمد: نشر الثناء الحسن على أرباب الفضل والكمال من أهل اليمن وذكر الحوادث الواقعة في هذا الزمن، تحقيق: إبراهيم أحمد المقحفي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

حواشي البحث

(١) سنلاحظ ذلك في المباحث القادمة.

(٢) زبارة، محمد بن محمد بن يحيى: نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، ج١، ص٢٨٩؛ الأكوع، إسماعيل بن علي: هجر العلم ومعاقله في اليمن، دار الفكر المعاصر، بيروت ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٢، ص٦٣٨؛ الوجيه، عبدالسلام بن عباس: أعلام المؤلفين الزيدية، مؤسسة الإمام زيد الثقافية، عمّان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٢٣٨ - ٢٤٦.

(٣) الشوكاني، محمد بن علي: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق: محمد حسن حلاق، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ج١، ص٢٧٤.

(٤) الشوكاني، محمد بن علي: إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي، تحقيق: أبي الحسن علي بن أحمد الرازحي، مكتبة الرضوان، مصر، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص٤٥، ٤٦.

(٥) المصدر السابق، ص٤٦.

(٦) المصدر السابق، ص٤٧ –٦١.

(٧) المصدر السابق، ص٦٦.

(٨) أحمد بن يحي بن المرتضى: عالم، وفقيه، وسيد من سادات آل البيت، ينتهي نسبه إلى إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ولد بذمار سنة ٧٦٥هـ/١٧٦٤م، وأخذ العلم عن أهل بيته، وعلى يد عدد من علماء اليمن، بويع بالإمامة عام ٧٩٣هـ/١٣٩١م، لكن الأمر لم يستقر له، ترك العديد من المصنفات في التوحيد وأصول الفقه والعربية والفرائض والمنطق، وكانت وفاته سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م. انظر: القاسم، طبقات الزيدية الكبرى، تحقيق: عبدالسلام بن عباس الوجيه، مؤسسة الإمام زيد الثقافية، عمان، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، المجلد الأول، ص٢٢٦ – ٢٣٣؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص١٥٥–١٥٩.

(٩) يحيى بن الحسين بن القاسم: عالم وفقيه، وسيد من سادات آل البيت، ينتهي نسبه إلى إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وُلد بالحجاز، وخرج إلى اليمن سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م، غير أنه لم ينجح في تأسيس دولته مما جعله يغادر اليمن إلى الحجاز، لكنه عاد إليه مرة أخرى عام ٢٨٤هـ/٨٩٧م فاستقر بصعدة، وأسّس دولة الأئمة الزيدية بها، وكان ورعاً زاهداً، كثير العبادة، ترك العديد من الكتب والمصنفات في الفقه، والتوحيد، وفي الرد على مخالفيه، وكانت وفاته في صعدة عام ٢٩٨هـ/٩١١م. انظر: المحلي، حميد بن أحمد: الحدائق الوردية في ذكر مناقب أئمة الزيدية، (مخطوط)، ورقة: ٣٤٤–٣٤٩، صورة منه في مكتبة عبدالعزيز بن سليمان المتحمي. ولدى الباحث نسخة منها. الجعدي، عمر بن علي بن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، تحقيق: فؤاد سيد، دار القلم، بيروت،

ص٧٩؛ القاسم، يحيى بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق وتقديم: سعيد عبدالفتاح عاشور، مراجعة: محمد مصطفى زيادة، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص١٦٦–٢٠١.

(١٠) الشوكاني، إرشاد الغبي، ص٦٧.

(١١) الإمام زيد: هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، سيدُ من سادات آل البيت، ومن ذوي الفضل فيهم، خرج أيام الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك وتبعه خلق، غير أن سيف بن عمر والي العراق تمكن من هزيمته وقتله وصلبه عام ١٢٢هـ/٧٤٠م. انظر: الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، قدّم له وكتب حواشيه: نعيم زرزور، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م، ج١، ٦٨، ٦٩، ٧٨؛ الذهبي، محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، عناية وتعليق: نعيم حسين زرزور، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، المجلد الثاني، ص١٠٦، ١٠٧.

(١٢) الشوكاني، إرشاد الغبي، ص٦٩، ٧٠.

(١٣) الزيدية الهادوية: نسبة إلى الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي، الذي قدم إلى اليمن من الحجاز سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م، فدعا إلى نفسه بالإمامة، وتلقب بالهادي، وكان عالمًا مجتهدًا متكلمًا. وبسبب آرائه وأفكاره المخالفة لآراء وأفكار الإمام زيد بن علي المؤسس الأول للمذهب الزيدي، فقد نُسب إليه أتباعه إذ يُطلق عليهم في بعض المصادر بالهادوية، تمييزًا لهم عن بقية الفرق التابعة للمذهب الزيدي. انظر: القاسم، يحيى بن الحسين: يوميات صنعاء في القرن الحادي عشر الهجري، تحقيق: عبدالله بن محمد الحبشي، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٦م، ص٩٥؛ الأكوع، إسماعيل بن علي: الزيدية، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ط٣، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص١٠٨.

(١٤) الشوكاني، محمد بن علي: أدب الطلب ومنتهى الأرب، تحقيق: عبدالله يحيى السريحي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص١٠٠.

(١٥) النعمي، إسماعيل بن عز الدين: السيف الباتر المضيء لكشف الإيهام والتمويه في إرشاد الغبي، (مخطوط)، ورقة: ٦، صورة منه بمكتبة عبدالعزيز بن سليمان المتحمي، ولدى الباحث نسخة منه.

(١٦) في الأصل "دلايل".

(١٧) النعمي، مخطوط السيف الباتر، ورقة: ٦.

(١٨) في الأصل "ادعا".

(١٩) النعمي، مخطوط السيف الباتر، ورقة: ١.

(٢٠) السيد حميدان: هو حميدان بن يحيى بن حميدان ينتهي نسبه إلى إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، عالم، وفقيه، وأصولي، ومتكلم، لم تُعرف تاريخ ولادته، ولا حتى وفاته بيد أنه من علماء الزيدية في اليمن خلال القرن السابع الهجري، ترك العديد من المؤلفات والأشعار. انظر: ابن أبي الرجال، أحمد بن صالح: مطلع البدور ومجمع البحور في تراجم رجال الزيدية، تحقيق: عبدالرقيب مطهر محمد حجر، عناية: مجد الدين المؤيدي، منشورات مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية،

صعدة، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج٢، ص٢٤١– ٢٤٣.

(٢١) عبدالله بن حمزة: هو أبو محمد الإمام المنصور عبدالله بن حمزة بن سليمان بن حمزة يرتفع نسبه إلى إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، عالم، وفقيه، وأصولي، ولد في سنة ٥٦١هـ/١١٦٦هـ، وأخذ العلم عن عدد من علماء بيته، تولى الإمامة في اليمن سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وخاض الكثير من الحروب، أشهرها الحرب الشعواء التي شنّها على أتباع المطرفية، ترك عشرات المؤلفات في الفقه، والعقيدة، وأصول الفقه، توفي سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م. انظر: القاسم، طبقات الزيدية الكبرى، المجلد الأول، ص٥٩٦–٦١٠؛ الوجيه، أعلام المؤلفين الزيدية، ص٥٧٨–٥٨٦.

(٢٢) في الأصل "أبا".

(٢٣) النعمي، مخطوط السيف الباتر، ورقة: ٢.

(٢٤) سورة غافر، آية: ٥١، ٥٢.

(٢٥) المصدر السابق، ورقة: ٤.

(٢٦) المصدر السابق، ورقة: ٤.

(٢٧) المصدر السابق، ورقة: ٤.

(٢٨) في الأصل "هذي".

(٢٩) في الأصل "الظلالات".

(٣٠) النعمي، السيف الباتر، ورقة: ١٤، ١٥.

(٣١) المصدر السابق، ورقة: ٤٢.

(٣٢) المصدر السابق، ورقة: ٤٣.

(٣٣) المصدر السابق، ورقة: ١٥.

(٣٤) المصدر السابق، ورقة: ١٥.

(٣٥) في الأصل "قرى".

(٣٦) في الأصل "أتا".

(٣٧) المصدر السابق، ص٥٤.

(٣٨) في الأصل "يرخا".

(٣٩) في الأصل "لأفتا".

(٤٠) في الأصل "منطوي".

(٤١) المصدر السابق، ورقة: ٥٥.

(٤٢) المصدر السابق، ورقة: ٥٤.

(٤٣) يحيى بن محمد الحوثي: عالم بالفرائض، وواعظ، ولد في عام ١١٦٠هـ/١٧٤٧م، وأخذ العلم عن عدد من علماء صنعاء، سجنه الإمام المنصور في أعقاب ثورة العامة عام ١٢١٦هـ/١٨٠١م، ثم أفرج عنه بعد شهرين، وكانت وفاته عام ١٢٤٧هـ/١٨٣٢م. انظر: الشوكاني، البدر الطالع، ج٢، ص٨٩٧؛ زبارة، نيل

الوطر، ج٢، ص٤٠٤.

(٤٤) الشوكاني، أدب الطلب، ص١٠٢.

(٤٥) الشجني، محمد بن حسن: التقصار في جيد زمان علامة الأقاليم والأمصار، حققه وعلق عليه: محمد بن علي الأكوع، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص٤٠٥.

(٤٦) الحسن بن عثمان العلفي: عالم، ووزير، مولده سنة ١١٤٦هـ/١٧٣٣م، تولى بعض مناطق اليمن في عهد الإمام المهدي عباس، ثم في عام ١١٩٣هـ/١٧٧٩م ولّاه الإمام المنصور ولاية ريمة، وبعد ذلك قلّده الوزارة العظمي، فأبان عن سياسة، وكياسة، وفطنة غير أنه يؤخذ عليه توليته لأقاربه، وكانت وفاته بصنعاء عام ١٢١٦هـ/١٩٠١م. انظر: زبارة، نيل الوطر، ج١، ص٣٤٢، ٣٤٣.

(٤٧) الشوكاني، البدر الطالع، ج٢، ص٨٩٨، ٨٩٩.

(٤٨) إسماعيل بن الحسن الشامي: مولده سنة ١١٥٤هـ/١٧٤١م، كان قائمًا على وقف مدينة ثُلا، ثم استقر بعد ذلك في ولاية وقف صنعاء، كان كثير التواضع، حسن الأخلاق، عالي الهمة، كثير المروءة، له يد في المعارف والعلوم. توفي في شعبان سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٩م. انظر: الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص١٧٨.

(٤٩) المصدر السابق، ج٢، ص٨٩٨.

(٥٠) لم تترجم له المصادر التي أمكن الاطلاع عليها، غير أنه كان مؤذن الجامع الكبير بصنعاء. انظر: جحاف، لطف الله بن أحمد: درر نحور الحور العين بسيرة الإمام المنصور وأعلام دولته الميامين، تحقيق: إبراهيم بن أحمد المقحفي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٤٩٣.

(٥١) الشوكاني، البدر الطالع، ج٢، ص٨٩٨.

(٥٢) المصدر السابق، ج٢، ص٨٩٨؛ جحاف، درر نحور، ص٤٩٣.

(٥٣) علي بن إبراهيم الأمير: عالم، وفقيه، وحفيد العلامة الكبير ابن الأمير الصنعاني، ولد في صنعاء عام ١١٧١هـ/١٧٥٨م، تلقى العلم على يد عدد من علماء صنعاء، وكان مفرط الذكاء، سريع الفهم، فصيح العبارة، له مصنفات في الفقه، كما ترك العديد من القصائد الشعرية، توفي سنة ١٢١٩هـ/١٨٠٤م. انظر: الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص٤٦٠ – ٤٦٢.

(٥٤) الحسن بن علي بن حنش: عالم، وفقيه، ووزير الإمام المنصور بالله، ولد في شهارة عام ١١٥٣هـ/١٧٤٠م، وارتحل إلى صنعاء لطلب العلم، فأخذ عن عدد من علمائها منهم العلامة ابن الأمير الصنعاني وغيره، ثم في عهد الإمام المهدي عباس تولى تدريس ابنه علي المنصور، وعندما صارت الإمامة إلى هذا الأخير استوزره، وبات من المقربين إليه، وكان حسن الأخلاق، بشوشًا، جامعًا بين العلم والفروسية، كثير الصدقات، محسنًا إلى الفقراء أيام وزارته. توفي سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م. انظر: زبارة، نيل الوطر، ج١، ص٣٤٨ – ٣٥٢.

(٥٥) جحاف، درر نحور، ص٤٩٣.

(٥٦) الشوكاني، البدر الطالع، ج٢، ص٨٩٩.

(٥٧) المصدر السابق، ج٢، ص٨٩٩.

(٥٨) الشوكاني، أدب الطلب، ص١٥٤؛ البدر الطالع، ج٢، ص٨٩٩.

(٥٩) جحاف، درر نحور، ص٤٩٤.

(٦٠) الشوكاني، البدر الطالع، ج٢، ص٩٠٠.

(٦١) المصدر السابق، ج٢، ص٩٠٠.

(٦٢) المصدر السابق، ج٢، ص٩٠٠، ٩٠١؛ جحاف، درر نحور، ص٤٩٤.

(٦٣) الشوكاني، البدر الطالع، ج٢، ص٧٥٨.

(٦٤) المصدر السابق، ج٢، ص٧٥٩؛ زبارة، نيل الوطر، ج١، ص٢٨٩.

(٦٥) الشوكاني، البدر الطالع، ج٢، ص٩٠١.

(٦٦) حريوة: بفتح الحاء، وكسر الراء، وهو لقب لأبيه. انظر: عاكش، الضمدي: حدائق الزهر في ذكر الأشياخ أعيان الدهر، تحقيق: إسماعيل بن محمد البشري، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص١٩٠؛ زبارة، نيل الوطر، ج٢، ص٢٧٤.

(٦٧) عاكش، حدائق الزهر، ١٩٠.

(٦٨) عبدالله بن محمد بن إسماعيل بن صلاح بن الأمير، ابن الإمام البدر الصنعاني، ولد سنة ١١٦٠هـ/١٧٤٧م، درس على يد والده، وعلى عدد من علماء اليمن، برع في النحو، والصرف، والمعاني، والبيان، والأصول، والحديث، والتفسير، وهو أحد أشهر علماء اليمن في عصره. انظر: الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص٤٣٥، ٤٣٦.

(٦٩) زبارة، نيل الوطر، ج٢، ص٢٧٤.

(٧٠) عاكش، حدائق الزهر، ص١٩٠.

(٧١) أحمد بن يحيى المرتضى: عالم، وفقيه، ينتهي نسبه إلى إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ولد بذمار سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٤م، وأخذ العلم عن أهل بيته وعلى يد عدد من علماء اليمن، بويع بالإمامة عام ٧٩٣هـ/١٣٩١م، لكن الأمر لم يستقم له، ترك العديد من المصنفات في التوحيد، وأصول الفقه، والعربية، والفقه، والفرائض، والمنطق، توفي سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧م. انظر: القاسم، طبقات الزيدية الكبرى، المجلد الأول، ص٢٢٦–٢٣٣؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص١٥٩.

(٧٢) شرح ابن المرتضى كتابه الأزهار بمؤلف آخر يقع في مجلدين، سماه: البحر الزخار، ثم شرحه وعلق عليه في كتاب آخر في أربعة مجلدات، سماه: الغيث المدرار، ثم شرحه وعلق عليه العلامة الحسن بن أحمد الجلال في كتابه المشهور: ضوء النهار المشرق على صفحات الأزهار، وشرحه أيضًا العلامة صالح بن مهدي المقبلي في كتابه: المنار، علاوة على أن العلامة ابن الأمير الصنعاني وضع حاشية على ضوء النهار للجلال سماها: منحة الغفار حاشية ضوء النهار. انظر: العمري، حسين بن عبدالله: الإمام الشوكاني رائد عصره، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص٢٦٧.

(٧٣) المرجع السابق، ص٢٧٢، ٢٧٣.

(٧٤) الشوكاني، محمد بن علي: السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، دار ابن حزم، بيروت، ط١،

١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص٧.

(٧٥) المصدر السابق، ص٧.

(٧٦) يقع السيل الجرار في عدة مجلدات غير أننا استندنا على طبعة دار ابن حزم في بيروت، التي جعلته في مجلد واحد ضخم يقع في ١٠٢٧ صفحة.

(٧٧) السماوي، محمد بن صالح: الغطمطم الزخار المطهر لرياض الأزهار من أدران السيل الجرار، (مخطوط)، ورقة: ٦، صورة منه في مكتبة عبدالعزيز بن سليمان المتحمي، ولدى الباحث نسخة منها. وينبغي التنبيه إلى أننا عوّلنا على النسخة المخطوطة ولم نعول على المطبوعة، التي حققها محمد يحيى سالم عزان، عام ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، وذلك لكون هذه النسخة قد هُذِّبت تم تهذيبها، وحذف السباب والشتائم منها، وهذا –في رأينا– عمل يندّ عن الموضوعية والعلمية، لأنه عمل من شأنه أن يحجب عنا الصورة الحقيقية لكتاب الغطمطم وما فيه من عبارات جارحة، وفاحشة، بحيث سيظهر مؤلفه السماوي بناء على هذا التهذيب والتشذيب بمظهر المعتدل، والمنصف، علاوة على أن هذا العمل من شأنه أيضًا أن يخفّف من شدة الخلاف، والخصومة المذهبية بين السماوي والشوكاني، وهو ما لم يكن صحيحًا.

(٧٨) المصدر السابق، ورقة: ٦.

(٧٩) المصدر السابق، ورقة: ٦.

(٨٠) المصدر السابق، ورقة: ٦.

(٨١) دُرِسَ كتاب "الغطمطم الزخار" في رسالة أكاديمية. انظر: الداعي، أحمد بن قاسم: محمد بن صالح السماوي ونقده الفقهي للشوكاني من خلال كتابه "الغطمطم الزخار"، إشراف: محمد الرايس، المعهد الأعلى لأصول الدين، جامعة الزيتونة، تونس، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

(٨٢) العمراني، مخطوط إتحاف النبيه، ورقة: ٢٦٨.

(٨٣) عاكش، حدائق الزهر، ص١٩٠.

(٨٤) زبارة، نيل الوطر، ج٢، ص٢٧٤.

(٨٥) الكبسي، محمد بن إسماعيل: النفحات المسكية بالأسانيد القوية في الإجازات المتوكلية والسيرة الإمامية المطهرية، (مخطوط)، ج١، ورقة: ٣٩، صورة منه في مكتبة أحمد يحيي آل فائع، ولدى الباحث نسخة منها.

(٨٦) الجنداري، أحمد بن عبدالله: الجامع الوجيز في وفيات العلماء أولي التبريز، (مخطوط)، ورقة: ١٨٩، أصله في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، برقم: ٢٥٢٤، ولدى الباحث نسخة منه.

(٨٧) عاكش، حدائق الزهر، ص١٩٠.

(٨٨) زبارة، نيل الوطر، ج٢، ص٢٧٤.

(٨٩) مجهول، حوليات يمانية، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص٤٧.

(٩٠) حوليات النعمي التهامية، تحقيق ودراسة: حسين بن عبدالله العمري، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٨٠.

(٩١) عاكش، حدائق الزهر، ص١٩٣.

(٩٢) المصدر السابق، ص١٩٠–١٩٣.

(٩٣) الشجني، التقصار، ص١٣٦؛ الضحياني، عبدالله بن حسن: الجواهر المضيئة في تراجم بعض رجال الزيدية، (مخطوط)، ورقة: ٣٣، صورة منه في مكتبة عبدالعزيز بن سليمان المتحمي، ولدى الباحث نسخة منها؛ الجنداري، الجامع الوجيز، ورقة: ١٨٨.

(٩٤) عاكش، حدائق الزهر، ص١٩٣؛ الشجني، التقصار، ص١٣٦؛ الضحياني، مخطوط الجواهر المضيئة، ورقة: ٣٣؛ الجنداري، مخطوط الجامع الوجيز، ورقة: ١٨٨.

(٩٥) مجهول، حوليات يمانية، ص٤٨.

(٩٦) العمراني، مخطوط إتحاف النبيه، ورقة: ٢٦٧.

(٩٧) المصدر السابق، ورقة: ٢٦٧.

(٩٨) المصدر السابق، ورقة: ٢٦٧.

(٩٩) المصدر السابق، ورقة: ٢٦٧، ٢٦٨.

(١٠٠) حوليات النعمي التهامية، ص٨٠.

(١٠١) الجنداري، مخطوط الجامع الوجيز، ورقة: ١٨٩.

(١٠٢) الضحياني، مخطوط الجواهر المضيئة، ورقة: ٣٣.

(١٠٣) الكبسي، مخطوط النفحات المسكية، ج١، ورقة: ٣٨، ٣٩.

(١٠٤) مجهول، حوليات يمانية، ص٤٨.

(١٠٥) عاكش، حدائق الزهر، ص١٩٣.

(١٠٦) المصدر السابق، ص١٩٣.

(١٠٧) الضحياني، مخطوط الجواهر المضيئة، ورقة: ٣٣.

(١٠٨) العمراني، مخطوط إتحاف النبيه، ورقة: ٢٦٦.

(١٠٩) المصدر السابق، ورقة: ٢٦٦.

(١١٠) المصدر السابق، ورقة: ٢٦٦.

(١١١) زبارة، نيل الوطر، ج٢، ص٢٧٧.

(١١٢) المصدر السابق، ج٢، ص٢٧٧، ٢٧٨.

(١١٣) مجهول، حوليات يمانية، ص٤٧.

(١١٤) المصدر السابق، ص٤٧.

(١١٥) في الأصل "هذى".

(١١٦) الكبسي، مخطوط النفحات المسكية، ج١، ورقة: ٣٨.

(١١٧) العمراني، مخطوط إتحاف النبيه، ورقة: ٢٦٦.

(١١٨) الضحياني، مخطوط الجواهر المضيئة، ورقة: ٣٣.

(١١٩) في الأصل "سعا".

(١٢٠) المصدر السابق، ورقة: ٣٥.

(١٢١) في الأصل "وشا".

(١٢٢) الجنداري، مخطوط الجامع الوجيز، ورقة: ١٨٨.

(١٢٣) المصدر السابق، ورقة: ١٨٨.

(١٢٤) الشجني، التقصار، ص١٣٥، ١٣٦.

(١٢٥) المصدر السابق، ص١٣٦.

(١٢٦) المصدر السابق، ص١٣٦.

(١٢٧) عاكش، حدائق الزهر، ص١٩١.

(١٢٨) المصدر السابق، ص١٩٢.

(١٢٩) كان سؤال عاكش الضمدي موجهًا إلى العلامة أحمد بن عبدالله بن النعمان الضمدي، لكونه من تلامذة السماوي، ومن خواصه الملتصقين به. انظر ترجمته لدى: عاكش، حدائق الزهر، ص١٨٣، ١٨٤.

(١٣٠) المصدر السابق، ص١٩٢.

(١٣١) في الأصل "يواضب".

(١٣٢) المصدر السابق، ورقة: ٢٧٢.

(١٣٣) الشجني، التقصار، ص١٣٦.

(١٣٤) في الأصل "علا".

(١٣٥) الجنداري، مخطوط الجامع الوجيز، ورقة: ١٨٨.

(١٣٦) العمراني، إتحاف النبيه، ورقة: ٢٧٢.

(١٣٧) سورة الأحزاب، آية: ٢٣.

(١٣٨) السماوي، مخطوط الغطمطم، ورقة: ٨.

(١٣٩) سورة الأحزاب، آية رقم: ٢٤.

(١٤٠) سورة الأحزاب، آية رقم: ٢٤.

(١٤١) السماوي، مخطوط الغطمطم، ورقة: ٨.

(١٤٢) المصدر السابق، ورقة: ٨.

(١٤٣) هكذا في النص.

(١٤٤) الشجني، التقصار، ص١٣٦.

(١٤٥) المصدر السابق، ص١٣٦.

(١٤٦) حوليات يمانية، ص٤٧.

(١٤٧) كما تم عرضه سابقًا.

(١٤٨) الضحياني، مخطوط الجواهر المضيئة، ورقة: ٣٥.

(١٤٩) أفرد الشوكاني في كتابه: در السحابة، شرحًا وافيًا لمناقب عددٍ كبير من أعلام آل البيت، وأفاضَ في تراجمهم، فقد ترجم لعلي بن أبي طالب، وفاطمة الزهراء، وأبنائهما مثل: الحسن، والحسين، وأم كلثوم، كما أورد المناقب المشتركة بين الحسن والحسين، وترجم لحمزة بن عبدالمطلب، والعباس بن عبدالمطلب، وجعفر وعقيل ابني أبي طالب، علاوة على ترجمته لأختهما أم هانئ بنت أبي طالب، فضلاً عن والدتهم فاطمة بن أسد، إضافة إلى أن الشوكاني ترجم لمحمد بن الحنفية، ومحمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. انظر: در السحابة في مناقب القرابة والصحابة، تحقيق ودراسة: حسين بن عبدالله العمري، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص١٩٩–٢٢٩، ٢٧٣–٢٨٠، ٢٨٦–٢٩٢، ٢٩٣–٢٩٩، ٣٠١–٣١٠، ٣٣١–٣٤٣، ٥٣٩–٥٤٠، ٥٤٢، ٥٧٧، ٥٧٨، ٧٣٣، ٧٤٣.

(١٥٠) العمري، الإمام الشوكاني، ص٢٧١.

(١٥١) المرجع السابق، ص٢٧١، ٢٧٢.

(١٥٢) هيكل، الإصلاح الديني، ص٣٢١.

(١٥٣) المرجع السابق، ص٣٢٢.

(١٥٤) الوجيه، أعلام المؤلفين الزيدية، ص٩٠٧.

(١٥٥) المرجع السابق، ص٢٤١، ٢٤٢.

(١٥٦) المرجع السابق، ص٩٥٩.

(١٥٧) المرجع السابق، ص٨٨٦.

(١٥٨) وهذا ما سيتم بيانه وإيضاحه في المبحث القادم المتعلق بمحنة العلامة محمد بن علي العمراني.

(١٥٩) الشوكاني، البدر طالع، ج٢، ص٩٠١.

(١٦٠) السماوي، محمد بن صالح: الغطمطم الزخار المطهر لرياض الأزهار من أدران السيل الجرار، تحقيق: محمد يحيى سالم عزان، مؤسسة الإمام زيد الثقافية، عمان، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ج١، مقدمة المحقق ص٣٤.

(١٦١) المصدر السابق، مقدمة المحقق ص٣٥.

(١٦٢) السماوي، مخطوط الغطمطم، ورقة: ٦.

(١٦٣) المصدر السابق، ورقة: ١٧.

(١٦٤) المصدر السابق، ورقة: ١٦.

(١٦٥) السماوي، مخطوط الغطمطم، ورقة: ١٧.

(١٦٦) المصدر السابق، ورقة: ١٨.

(١٦٧) المصدر السابق، ورقة: ٣٦.

(١٦٨) المصدر السابق، ورقة: ٣٦.

(١٦٩) المصدر السابق، ورقة: ٤٠.

(١٧٠) المصدر السابق، ورقة: ٢٨.

(١٧١) المصدر السابق، ورقة: ٣٠.

(١٧٢) المصدر السابق، ورقة: ٣٠.

(١٧٣) الشوكاني، البدر الطالع، ج٢، ص٩٠١.

(١٧٤) الحسن بن يحيى بن أحمد الكبسي، ولد في صفر من عام ١١٦٧هـ/١٧٥٣م، نشأ بصنعاء، وقرأ على بعض شيوخها، ولازم الحسن بن إسماعيل المغربي ملازمة تامة، فقرأ عليه النحو، والصرف، والمنطق، والبيان، والحديث، والتفسير، حتى برع في هذه العلوم، وصار من أعيان عصره وعلمائه، استقر في هجرة الكبس، وعكف عليه طلبة العلم، وصار يدرس في كثير من العلوم. توفي سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م. انظر: الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص٢٤٧–٢٤٩؛ زبارة، نيل الوطر، ج١، ص٣٥٨–٣٦٤.

(١٧٥) عاكش، حدائق الزهر، ص١٠٣؛ زبارة، نيل الوطر، ج٢، ص٢٨٩.

(١٧٦) عاكش، حدائق الزهر، ص١٠٣.

(١٧٧) الشجني، التقصار، ص٤١٥.

(١٧٨) زبارة، نيل الوطر، ج٢، ص٢٨٩.

(١٧٩) عاكش، حدائق الزهر، ص١٠٣.

(١٨٠) الشجني، التقصار، ص٤١٦.

(١٨١) عاكش، حدائق الزهر، ص١٠٤.

(١٨٢) الشوكاني، البدر الطالع، ج٢، ص٧٦٣.

(١٨٣) لعل مما يدلل على قوة علاقة العمراني بشيخه الشوكاني، إجازة هذا الأخير له، حيث ورد فيها ما لفظه: "الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا وآله الطاهرين، ورضي الله عن الصحابة الراشدين، فيقول الحقير مؤلف هذا الثبت محمد بن علي الشوكاني -غفر الله لهما -، أنه قد أجاز للعلامة الأجل، الفهامة الأبجل، عز الدين، عين أعيان العلماء الراسخين محمد بن علي العمراني، عمر الله بعلومه ما انهدم من معالم العلوم، أن يروي عنه ما اشتمل عليه هذا الثبت الموسوم بإتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر، وقد سمع عليّ ما اشتمل عليه من مؤلفات أهل العلم...وأذنت له بأن يروي عني ما يجوز لي روايته من مسموع ومجاز، وكذلك أجزته بأن يروي عني جميع مؤلفاتي، نفع الله بعلومه، وكثّر في عداد أهل العلم من أمثاله، بتاريخ شهر ذي الحجة سنة ١٢٢٠هـ". انظر: إجازة الشوكاني للعمراني، صورة منها في مكتبة عبدالعزيز بن سليمان المتحمي، ولدى الباحث نسخة منها.

(١٨٤) عاكش، حدائق الزهر، ص١٠٤، ١٠٥.

(١٨٥) عاكش، حدائق الزهر، ص١٠٦.

(١٨٦) الوجيه، أعلام المؤلفين الزيدية، ص٩٤٨.

(١٨٧) هيكل، برنارد، الإصلاح الديني في الإسلام (تراث محمد الشوكاني)، نقله إلى العربية: علي محمد زيد، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠١٤م، ص١٠٨، ١٠٩.

(١٨٨) الوشلي، إسماعيل بن محمد: نشر الثناء الحسن على أرباب الفضل والكمال من أهل اليمن وذكر الحوادث الواقعة في هذا الزمن، تحقيق: إبراهيم أحمد المقحفي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج٣، ص٢٠٣.

(١٨٩) زبارة، نيل الوطر، ج٢، ص٢٩١؛ الحبشي، عبدالله محمد: مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٨٦.

(١٩٠) ثمة مأزق أخلاقي كبير يقع فيه المرء حالما يبدأ بالتفكير في دراسة مثل هذا الموضوع، فمن جهة أولى كنا ندرك – تحت وخز الضمير الديني – أن محاكمة أي من هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين أفضوا إلى ما أفضوا إليه، أو إدانة بعضهم، أو تبرير فعل أحدهم عملُ شاق وصعب للغاية، بل هو مغامرة كبيرة باعتبار أن إصابة العدل في مثل هذه الموضوعات قد لا يكون قطعياً، ومن جهة ثانية فإن التخلي عن تناول هذا الموضوع يمكن أن يحرم القارئ ما يكتنزه من فوائد تاريخية وعلمية، وما يحمله من دروس وعبر، بل إن التخلي عنه ليس إلا ضربًا من ضروب كتمان العلم، الذي نهى الله عنه، وعليه فقد ولجنا غماره، عُدتنا فيه الصدق والإخلاص، والله يتولانا ويتولى أولئك الأفذاذ المختصمين بعفوه ورحمته.

(١٩١) العمراني، إتحاف النبيه بخبر افتتاح المنصور وبنيه، (مخطوط)، ورقة: ٢٢٣، صورة منه في مكتبة عبدالعزيز بن سليمان المتحمي، ولدى الباحث نسخة منها.

(١٩٢) بلعام: هو بلعام بن باعوراء، شخصية إسرائيلية مُجرّمة، ومُثرّبُ عليها في المصادر الإسلامية الكلاسيكية، التي استقت معلوماتها عنها من الروايات الإسرائيلية، حيث وُصفت بأنها حازت على علم لاهوتي كبير حتى غدت من أكبر أحبار اليهود وعلمائها، غير أنها تنكرت لكل ذلك، وانضمت إلى الجبارين الذين قاتلهم بنو إسرائيل حين راموا الدخول إلى الأراضي المقدسة، وتشير هذه المصادر إلى أن الآية الكريمة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] قد نزلت فيه. انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، عمان، ص١٤٧؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: قصص الأنبياء، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ط٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٥١٠، ٥١١. والشاهد هنا أن العمراني يماثلُ بين الشوكاني وبلعام بن باعوراء، ويعتبره مساويًا له في الصفات والخصال.

(١٩٣) العمراني، مخطوط إتحاف النبيه، ورقة: ٣٤٤.

(١٩٤) المصدر السابق، ورقة: ٢٨٠.

(١٩٥) المصدر السابق، ورقة: ٢٨٠.

(١٩٦) المصدر السابق، ورقة: ٢٨١.

(١٩٧) المصدر السابق، ورقة: ٢٢٦.

(١٩٨) المصدر السابق، ورقة: ٢٢٦.

(١٩٩) من المفارقات العجيبة أن العمراني لئن كان يطعن في قضاء الشوكاني، فإن القدر قد خبأ له وبعد حوالي أكثر من قرنٍ ونصف أحد أحفاده وهو العلامة الكبير محمد بن إسماعيل بن محمد بن محمد بن علي العمراني، الذي سيقول عن علماء صنعاء ما ينقض كلام جدّه نقضًا تامًّا، إذ سينقل على ألسنتهم ما لفظه: "إن خير عصر في اليمن، انتصف فيه المظلومون من ظالمهم، ونفذت فيه أوامر قضاة الشريعة هو العصر الذي تولى فيه مشيخة الإسلام القاضي محمد الشوكاني، وخصوصاً في المدة الأخيرة من أعوام توليه لهذا المنصب العظيم". انظر: العمراني، محمد بن إسماعيل: قصص وحكايات من اليمن، أعدها وجمعها وحققها: محمد عبدالرحمن غنيم، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠١٠م، هامش ص٩٦.

(٢٠٠) العمراني، إتحاف النبيه، ورقة: ٢٢٦.

(٢٠١) هيكل، الإصلاح الديني، ص١٠٩.

(٢٠٢) أحصى أحد الباحثين مؤلفات الشوكاني فبلغت حوالي مئتين وتسعين مؤلفاً، ما بين كتاب، وبحث، ورسالة. انظر: الحبشي، مصادر الفكر الإسلامي، ص٧٦٠ – ٧٨٠.

(٢٠٣) العمراني، مخطوط إتحاف النبيه، ورقة: ٢٧٢.

(٢٠٤) المصدر السابق، ورقة: ٢٧٢.

(٢٠٥) المصدر السابق، ورقة: ٢٧٢.

(٢٠٦) المصدر السابق، ورقة: ٢٨١.

(٢٠٧) المصدر السابق، ورقة: ٢٧٣.

(٢٠٨) المصدر السابق، ورقة: ٢٨٧.

(٢٠٩) المصدر السابق، ورقة: ٢٨٧.

(٢١٠) المصدر السابق، ورقة: ٢٨٧.

(٢١١) المصدر السابق، ورقة: ٢٨٨.

(٢١٢) سورة الملك، آية: ٥.

(٢١٣) العمراني، مخطوط إتحاف النبيه، ورقة: ٢٩١.

(٢١٤) المصدر السابق، ورقة: ٢٩١.

(٢١٥) الشوكاني، البدر الطالع، ج٢، ص٧٦٣.

(٢١٦) عاكش، حدائق الزهر، ص١٠٤.

(٢١٧) المصدر السابق، ص١٠٤.

(٢١٨) المصدر السابق، ص١٠٤.

(٢١٩) المصدر السابق، ص١٠٤.

(٢٢٠) زبارة، نيل الوطر، ج٢، ص٢٩١.

(٢٢١) عاكش، حدائق الزهر، ص١٠٦.

(٢٢٢) الشريف الحسين بن علي بن حيدر آل خيرات، أميرُ من أمراء المخلاف السليماني، ولد سنة ١٢١٥هـ،

تولى حكم المخلاف السليماني بعد وفاة والده سنة ١٢٥٤هـ، وصفته عدد من المصادر بالعلم، والذكاء، والشجاعة، والعدل، واستمر أميرًا على المخلاف السليماني حتى سنة ١٢٦٥هـ حينما اعتزل الحياة السياسية، وسلّم حكم المخلاف السليماني إلى الأتراك العثمانيين. قضى بقية حياته في مكة، وتوفي سنة ١٢٧٣هـ. انظر سيرته لدى: عاكش، الديباج الخسرواني في أخبار أعيان المخلاف السليماني، تحقيق: إسماعيل بن محمد البشري، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ، ص٣٥٣- ٥٠٥؛ الوشلي، نشر الثناء الحسن، ج٢، ص٢٩- ٦٧.

(٢٢٣) المصدر السابق، ص١٠٦.

(٢٢٤) المصدر السابق، ص١٠٦، ١٠٧.

(٢٢٥) تشير بعض المصادر التاريخية إلى أن العلامة العمراني قتل في داره على يد الباطنية من قبائل يام، الذين اقتحموا مدينة زبيد مع الشريف الحسن بن محمد بن علي بن حيدر نصرةً لعمه الشريف الحسين بن علي بن حيدر في أثناء صراعه العسكري مع إمام اليمن المتوكل على الله، حيث دخل أحد مقاتلي الشريف الحسن من قبائل يام منزل العلامة العمراني وضربه في عنقه بخنجر، فلبث يومين حيًّا، ثم توفي على إثر ذلك. انظر: عاكش، حدائق الزهر، ص١١٣؛ زبارة، نيل الوطر، ج٢، ص٢٩٢. ولمعرفة أخبار هذا الصراع وأسبابه، انظر: عاكش، الديباج، ص٤٢٣–٤٦٦.

(٢٢٦) الإمام المهدي: هو عبدالله بن أحمد المتوكل بن علي المنصور، ولد بصنعاء سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م، تولى الإمامة بعد وفاة والده المتوكل أحمد عام ١٢٣١هـ/١٨١٦م، وصفته المصادر بأنه كان بطّاشًا، سفاكًا للدماء، مؤثرًا للهو، والملذات، والتغافل عن شؤون الملك. توفي في عام ١٢٥١هـ/١٨٣٤م. انظر: الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص٤٧١؛ العرشي، حسين بن أحمد: بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى اليمن من ملك وإمام، عناية: الأب أنستاس ماري الكرملي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ص٧١؛ الجرافي، عبدالله بن عبدالكريم: المقتطف من تاريخ اليمن، دار الكتاب الحديث، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص٢٠٥.

(٢٢٧) زبارة، نيل الوطر، ج٢، ص٣٠٢.

(٢٢٨) الوجيه، أعلام المؤلفين الزيدية، ص٩٤٨.

(٢٢٩) حين ترجم هذا الباحث لإسماعيل بن عز الدين النعمي، فقد استهل ترجمته بقوله: "عالم، مجتهد، شاعر، أديب، عكف على الاشتغال بالمعارف والعلوم بصنعاء". انظر: المرجع السابق، ص٢٣٨. وبقدر ما كان هذا الباحث يسبغ عبارات المديح على النعمي، ويثني على علمه، فقد كان في مقابل ذلك يحط من شأن الشوكاني، ويعتبره جاهلاً عندما وصف النعمي بالجهل، إذ اعتبر أن هذا الوصف من لدنه ليس إلا دعوى "تكفي وحدها للتدليل على تحامل وجهل قائلها"!، ثم يسترسل في نقد الشوكاني فيقول: "وأي شيء أعظم من أن يعمد مدعي العلم إلى السباب والشتم ونسبة الجهل إلى خصمه، والوشاية به إلى الحكام والإغراق في التنكيل بالحبس والتشريد والنفي والقتل والإرهاب والتهديد بدلًا عن مقارعة الحجة بالحجة، وعند الله تجتمع الخصوم فقد لقي المترجم حتفه سجينًا منفيًّا بعيدًا عن أهله ووطنه

وليس وحده فضحايا شيخ الإسلام مجدد القرن الثاني عشر كثيرون" . المرجع السابق، ص٢٤٦. أما فيما يتعلق بالسماوي فقد افتتح هذا الباحث ترجمته بقوله: "الحافظ، المجتهد، المحقق، الشهيد، أحد علماء القرن الثالث عشر الهجري، ونجوم علماء الزيدية الأعلام" انظر: المرجع السابق، ص٩٠٥. وإزاء هذا الثناء هذا العاطر فإنه في ترجمته لأحد الشعراء اليمنيين المقربين من الإمام المهدي تعرض للشوكاني بنقد لاذع، إذ يقول عن المهدي بأنه "كان لعبة بيد الشوكاني، يختار له من يسامره، ويحكي له القصص، ويحرضه على العلماء العاملين، فيقتل منهم، وينكل، ويشرد كل من خالف الشوكاني في رأي أو فكر". انظر: المرجع السابق، ص٩٠٥. وهنا ومن خلال هذه النصوص يتضح أن سيف هذا الباحث النقدي كان صارمًا مسلولًا يفري كل ما له علاقة بالشوكاني، في حين أنه كان مُغمدًا وكليلًا عند خصومه، أو بالأحرى لا وجود له مطلقًا، مما يدل على أن هذا الباحث في مقارباته التاريخية لهذه الموضوعات كان يحملُ نفَسًا مذهبيًّا متعصبًا لعلماء الزيدية الهادوية.